التربية في انجلترا وأمريكا

ومقارنتها بالتربية عند الأمم اللاتينية

تأليف

أحمد فهمي العمروسي

تقديم ومراجعة

د. كمال حسني

الكتاب: التربية في انجلترا وأمريكا ومقارنتها بالتربية عند الأمم اللاتينية

الكاتب: أحمد فهمي العمروسي

تقديم ومراجعة: د. كمال حسني

الطبعة: ٢٠٢١

الطبعة الأولى ١٩٢٦

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة - جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

APA

http://www. bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

العمروسي ، أحمد فهمي

التربية في انجلترا وأمريكا ومقارنتها بالتربية عند الأمم اللاتينية / أحمد فهمي العمروسي, تقديم ومراجعة: د. كمال حسني

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٢١ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ١ – ٢٧٢ – ٩٩١ – ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ١٣٩١٦ / ٢٠٢١

التربية في انجلترا وأمريكا

ومقارنتها بالتربية عند الأمم اللاتينية

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

تقديم

سلمني قيادة التربية وأنا كفيل بأن أغير وجه أوروبا قبل قرن واحد من الزمن،

"لينتز"

يضم هذا الكتاب النص الكامل لأربع محاضرات في التربية ألقاهم السيد "أحمد فهمي العمروسي" الذي كان يلقب في عصره بشيخ شيوخ المربين وقدوة المعلمين،وقد ألقى المحاضرات على جمع غفير من رجال التربية والتعليم في مصر، ففي يناير سنة ١٩٢١، وعقب العودة من رحلة إلى المملكة المتحدة ألقى محاضرتين عن النظام التربوي في إنجلترا، وفي مايو سنة ١٩٢٥، وبعد عودته من زيارة للولايات المتحدة الأمريكية ألقى محاضرتين عن النظام التربوي والتعليمي في أمريكا، وهو في حديثه عن التعليم في إنجلترا والولايات المتحدة تطرق كثيرا إلى النظم التعليمية في كل من فرنسا وألمانيا، مقارنا كل ذلك بالنظام التعليمي الذي كان متبعا في مصر في ذلك الوقت، وهو بذلك كان رائدا في مجال التربية المقارنة، وهي تتيح التعرف على ثقافات الشعوب الاخرى وحضارتها في ابعادها المختلفة فعن طريق التربية المقارنة يمكن التعرف على كثير من

عادات الشعوب وطبائعها ونظمها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وغيرها، ومن ثم تساعد التربية المقارنة على تقارب الشعوب وتفاهمها، كما تساعد في التخفيف من غلواء دارسيها وتقديرهم المبالغ فيه لنظمهم التعليمية بما يؤدي استثارة الحماس فيهم من اجل تحسين نظمهم التعليمة وتطويرها، كما تساعد على تنمية الاتجاه الموضوعي في دراسات المشكلات التعليمية المشتركة بين الدول مما يحقق الفائدة التعليمية والاجتماعية.

كل تلك المزايا تحققها التربية المقارنة، وهي علم حديث نسبيا، كان المؤلف واحدا من رواده على المستويين المصري والعربي، كما كشف في الوقت نفسه عن حس وطني يدفعه إلى وضع يده على مواطن الخلل في وطنه، ملتمسا علاجها والأخذ بالأساليب الحديثة التي دفعت أمما أخرى غيرنا إلى التقدم والازدهار.

وقد كشف في كتابه عن إدراكه لإمكانية الاستفادة من تجارب الآخرين دون أن نستنسخها، فيمكن أن نستفيد بقطف ثمارها ونقل مزايا النظام التعليمي الغربي لنسهم بها في علاج أوجه قصور في نظمنا الخاصة، وقد كشف عن هذا الوعي بقوله: "قد يكون من الصعب أحياناً نقل طرق التربية والتعليم برمتها من أمة إلى أمة أخرى وربما لا يكون، فاليابان مثلا وهي أمة جديدة لم تثقل كاهلها العادات المتوارثة والتقاليد المتعاقبة استطاعت أن تنقل نظام

الجامعات في ألمانيا بحذافيره فاينع وأثمر وأصبح لدى اليابان بيئة علمية لا تضارعها في التثقيف وحب البحث والاختراع إلا البيئة الألمانية".

وقال كذلك: " إن مصرنا الجديدة الناهضة لا يضيرها أن تقتبس من النظم الحديثة ما تشاء فليست المدينة إلا تقليداً وانقياداً بعد تحكيم العمل والذوق في اختيار الأصلح والأنسب. وإن قبول التبديل والتغيير وسرعة الإجابة لدعوة الإصلاح من أسرار نهوض الأمم ورقيها".

ولم يغب عن فطنته وخبرته إن الإصلاح لا يمكن أحداثه دفعة واحدة، بل يتم تدريجيا، فقال: " إن الإصلاح الناجع ولا سيما في أساليب التربية والتعليم هو ذلك الاصلاح التدريجي المستمر الذي يحاكي الطبيعة في فعلها فهي التي كونت الجبال الرواسخ من ذرات الرمل الصغيرة بتراكم بعضها فوق بعض على مدى الأيام والأجيال".

وكذلك عبر عن قناعته بأن التطوير يجب أن يكون موضوعيا وليس شكليا، بقوله: "ليس من الضروري أن يكون تنقيح مناهج التعليم بالزيادة في المواد بل قد يكون بحذف بعضها واختزال البعض الآخر فسر التعليم هو في القليل الشائق المفهوم الذي يدعو إلى الاستنباط ويعوّد الحكم الصحيح على الأشياء والتبصر في

عواقبها".

فالتعليم الصحيح كما يقولون «كيفٌ لا كمٌ». وقد قال أيضا لمستمعي محاضراته: " أعرض تلك الأفكار الصحيحة وأَنشرها بين الناس لاعتقادي أن الإنسان يجب ألا يتردد في نشر الأفكار الصائبة النافعة في البيئة التي يعيش فيها كالبذور الصالحة لابد أن تنبت يوماً ولو أصبت أرضاً يابسة جامدة أعرضها وأنشرها بين طبقات المعلمين خصوصاً لعلهم ينسجون على منوالها ويحتذون مثالها في مدارسنا أو يقتبسون منها على الأقل ما يناسب حالنا ويتفق مع ذوقنا".

وقد عمل العمروسي على ترسيخ القناعة بأن التربية شيء أساسي لحياتنا، فهي التي تقدمنا للناس الذين نتعامل معهم، كما أنها هي التي تحدد شخصيتنا وأسلوبنا في التعامل مع الناس كافة، والكلام عن التربية، يقودنا إلى الكلام عن الإنسان ذاته، ذاك الوافد على المستقبل بنماءٍ تربوي هجين، حيث يدفعنا إلى التفكير جديًا بضرورة إيجاد سبل قراءةٍ جديدةٍ للواقع التربوي، منطلقًا من قوة معرفيّة، تتفاعل وأولويات الإنسان، فالمجتمعات ترتقي بالتربية التي تزوّد الأفراد بالمعارف والمهارات الضرورية، انطلاقًا من محاكاتها لميولهم وقدراتهم، وتهذيب انفعالاتهم، وتصعد بهم سلّم نجاحهم عبر المدرسة، والتي هي من إفرازات التطور الاجتماعي للبشر. ولطالما

كان المتعلّم ركيزة الاهتمام في عالم المتغيرات المتسارعة والمتنامية، والهادفة إلى بناء وعي المتعلّم كضرورة أصيلة تمكّنه من أن يكيّف نفسَه مع بني مجتمعه. وبالتالي تعتبر التربية عملية تأقلم مع البيئة والظروف ذات الفاعلية المجتمعية والحضارية والثقافية.

وتنطلق التربية الحديثة من فهم شمولي أكثر موضوعية لفهم واقع الإنسان وفعاليته، وتتبنى كل ما توصل إليه العلم الحديث من ثوابت وحقائق، ومدارك، وانفعالات الفرد، ذات صلة ببيئته وواقعه. فقد أكدت على الاستعانة بالوسائل التكنولوجية الحديثة، وتقدم التربية على التعليم، وتعتمد على مراعاة الفروق الفردية، فهي توجه عناية شاملة لتكوين الطفل تكوينا متكاملا متسقا، وتؤكد على أهمية العناية بتربية الفكر والخلقية والتربية المهنية للفرد، من خلال التكيف مع اهتمامات الطفل في كل مرحلة من مراحل العمر وتحرص على إيجاد الجهد الخلقي الملائم لاهتمامات الطفل النفسية واهتمت بتقسيم مراحل الطفولة وقدمت التربية على أسس ملائمة لتكوين النمو النفسي للطفل في كل مرحلة من مراحل نموه. وكل ذلك يمكن أن نتعلمه وندرك قيمته من هذا الكتاب الممتع والمفيد.

ومن أقوال العمروسي المعبرة عن تلك القناعات، وقد وردت مرارا في محاضراته ومقالاته الموجهة إلى المعلمين: "لا شيء ينفذ إلى

قلوب النشء وينمي فيهم الأخلاق العالية وللفضائل السامية، مثل أن يعدل المربي في حكمه على حوادث بلاده وتاريخ كبار رجال أمته، وأن يجهر بالحقائق ممحصة مجردة من شوائب الهوى وأدناس الغرض، فبذلك وحدة تنبت بذور الأنظمة والأخلاق، وتنمو جذورها في الأمم".

سيرة مميزة:

فمن هو ذلك الرجل الذي قيل عنه "شيخ شيوخ المربين وقدوة المعلمين بلا منازع"؟

إنه أحمد فهمي العمروسي، المولود في عام ١٨٦٩ في عهد الخديوي إسماعيل، حصل على شهادة البكالوريا (الثانوية العامة حاليا) عام ١٨٨٨ ثم التحق بمدرسة التوفيقية حتى تخرج فيها أول الناجحين في الدبلوم عام ١٨٩١، ليعين بعدها مباشرة مدرسا بنفس المدرسة تخرج فيها.

وفي عام ١٨٩٤ اختارته وزارة المعارف عضوًا لبعثتها لدراسة العلوم الرياضية والطبيعية في مدرسة «سانكلو» بفرنسا، ليحصل على شهادتها في ١٨٩٧، وعند عودته إلى مصر عين مباشرة مدرسا بالقسم العالي من مدرسة المعلمين التوفيقية.

ولم يكتف بما حصل عليه من شهادات علمية، بل توجه

لدراسة الحقوق في الفترة من ١٩٠١ وحتى ١٩٠٣ حيث حصل على ليسانس الحقوق من كلية باريس، وفي ١٩٠٤ عرض عليه عبد الخالق ثروت باشا منصبًا رفيعًا في القضاء إلا أن وزارة المعارف تمسكت به، ليعتذر عن المنصب مبررًا ذلك خلال حديث له نشرته مجلة «الهلال» في عدد مايو ١٩٣٠، قال فيه: "لقد تعلمت أن أكون أمينا على العلم، صادقًا في صناعة التدريس والتعليم، التي أعدت نفسي لها، وما أزال مغتبطا بها مفضلا لها على ما عداها".

وفي عام ١٩٠٨ اختاره الزعيم سعد زغلول باشا، وكان وقتها ناظرًا للمعارف، مفتشا بالنظارة مع القيام بأعمال السكرتير الفني له، وكان في نفس الوقت يدرس التاريخ الطبيعي والكيمياء والطبيعة في مدرستي القضاء الشرعي ودار العلوم.

وفي عام ١٩٠٨ تم نقله من مدرسة دار العلوم ليترك ذلك أثرا محزنا في نفوس زملائه وطلابه، ففي ١٦ إبريل ١٩٠٩ نشرت صحيفة «دار العلوم» في عددها الأول الخطاب الذي وجهه إليه أساتذة دار العلوم، جاء من بين فقراته: "حضرة المفضال: لقد كان للمعروف أثر في امتلاك القلوب، وللإحسان سبيل إلى استحقاق الشكر، لقد مني إلينا ما جعل قلوبنا طوع محبتك ورهن مودتك، ومنك إلى الطلبة ما جعلهم في أعينهم نتائج صنعك وصنائع فضلك، وفي أعين الملأ صحائف لتخليد الثناء عليك ونماذج

لأياديك البيضاء في خدمة العلم وأهله".

بعد ذلك، عين أحمد فهمي العمروسي وكيلا لدار العلوم عام ١٩٠٩ ثم ناظرا لمدرستي المحاسبة والتجارة العليا والمتوسطة، فمفتشا للبعثة العلمية المصرية في فرنسا ليكون مديرًا لها فيما بعد، ثم عضوا في مجلس النواب الأول، وبعد ذلك أعيد للخدمة فكان مديرًا للمكتب الفني بوزارة المعارف، ثم ناظرًا لمدرسة المعلمين العليا العلمية والأدبية، ثم مديرًا لمعهد التربية.

ثمار رحلته:

كان أحمد فهمي العمروسي أول مبعوث مصري عاد من بعثته، فتولى ترجمة كتب الطبيعة والكيمياء والتاريخ الطبيعي وبعض كتب الرياضة المقررة على المعاهد العليا والمدارس الثانوية، وبذل في ذلك مجهودًا كبيرا في سبيل الدفع بالنهضة العلمية في مصر إلى الأمام، ويعتبر من القلائل الذين استطاعوا المزج بين الثقافة الغربية والعربية في نقل الأفكار العلمية توجيها قويما.

ونرى أثر ذلك بينا في الكتب المدرسية التي نقلها إلى العربية، وهي بالعشرات، منها: التربية والتعليم عند العرب، الفنون الجميلة عند العرب، أثر الأشغال اليدوية في التربية والتعليم، الغرض من التربية والتعليم في القرن العشرين، التربية والتعليم في إنجلترا وموازنتها بفرنسا، التربية والتعليم في أمريكا، تربية الذوق السليم،

العقل وكيف يتكون، علاقة العلم بالأخلاق.

وبعد إحالته على المعاش تم جمع الكثير من محاضراته لوضعها في كتاب «محاضرات في التربية والتعليم»، وآخر كتبه هو «رسالة المعلم".

وفي ليلة الخامس عشر من إبريل ١٩٥٩، انتقلت إلى الرفيق الأعلى روح شيخ شيوخ المربين كافة الأستاذ أحمد فهمي العمروسي بك عن عمر يناهز التسعين عامًا.

د. كمال حسني

المحاضرة الأولى

التربية في انجلترا

بعد الثناء على الله جل شأنه والصلاة والسلام على أنبيائه ورسله أشكر لحضراتكم بركم بالأدب وجميل مظاهرتكم للعلم واستباقكم إلى تشجيع الباحثين فيه والمنقبين عنه وخاصة فنون التربية التي أنتم حُماة ذِمارها وخيرة أنصارها وأرجو أن يصيب مقالي الغرض الذي سددته إليه، ويأتي بالثمرة التي رجوتها منه.

منذ عشر سنين أتذكر أني قمت مثل هذا المقام بين جملة من المتخرجين في دار العلوم وطلاّبها شارحاً شيئاً من آراء هربارت الألماني في التربية واليوم أتشرف بأن أقوم أمام جماعة المعلمين لأذكرهم ببعض ما يعلمون من آراء الانجليز في التربية والتعليم، والموازنة بينها وبين التربية والتعليم في فرنسا، على ما اتسعت له الطاقة، وبلغ الجهد لعلنا نجد في شيء من ذلك نقعاً للغلة وإنهاضاً للتربية في بلادنا إلى مثل منزلتها العالية في الأمم الراقية وإن المعلومات التي سأذكرها لكم مستمَدةٌ من كتب فرمسية وضعها سنة ١٨٩٥ كتّاب فرنسيون تربوا في انجلترا ودرسوا طرق التربية فيها وعُرضت كتبهم على المجتمع العلمي فأقرها ونالت بذلك صبغو رسمية أو شبيهة بها وسترون من

نص حديثها أنها كثيراً ما تؤثر الطرق الانجليزية على غيرها، وليس بدعاً فالفرنسيون لا يأنفون أن يحتذوا أمة من الأمم في فرع من الفروع إيثاراً للحق وضناً بالنفع واعترافاً بالفضل لأهله وما أعدلهم إذ يقولون (أعطِ ما لقيصرَ لقيصر).

ولئن يسر لي الله غداً العثور على معرفة صحيحة في طرق التربية عند الأمريكان أو اليابان لأتقدمن في موافاتكم بها وإيقافكم عليها إن رأيت فيها ما يصلح من حالنا ويقوّم من عِوَجنا.

«فالحكمة ضالة المؤمن ينشدها حيث يجدها» وتعلمون أن الأمة كالفرد لن ترقى رقيها وتنزل منزلتها حتى توازن بين أسبابها وأسباب غيرها من الأمم الراقية، أما إذا اعتزلت من عداها من الأمم فإن مثلها يكون كمثل الماء الراكد تنتابه عوارض الفساد ويصبح قرارة لجراثيم الأمراض.

ولقد علمت بطول الاختبار أن علم التربية على جلالة قدره وعظيم منزلته وجمال أثره في النفوس يتركب من عدة قضايا صغيرة واعتبارات وملاحظات تظهر لأول وهلة أنها تفهةٌ لا يؤبه بها ولكنها مع المداومة وطول الأناة قد يكون لها من النتائج ما لا يكاد يتصوره الإنسان.

قلّ أن يقرأ الإنسان حكاية أو يسمع فكاهة دون أن يجد فيها غرضاً من أغراض التربية المتشعبة ويضيفها إلى باب من أبوابها

المتفرقة.

ألا إن مجالَ فن التربية واسعُ المدى-بل لا حدّ له- ولا غرو فموضوعه الإنسان وهو ذلك اللغز المغلق الذي حارت البرية في فهم كنهه والوصول إلى غوره.

وتـــزعم أنـــك جِـــرم صـــغير   وفيـــك انطـــوى العـــالم الأكـــبر

نظام التربية والتعليم في انجلترا

إن نظام التربية والتعليم في انجلترا يختلف اختلافاً ظاهرا عنه في فرنسا وفي غيرها من سائر الأمم الأخرى. والإنجليز يتمسكون به ويحرصون عليه أشد الحرص ولن يقدرِ أحد من المصلحين على نقد قاعدة أو عادة منه أو نقض عقيدة من عقائده ولو كانت أشبه بالخرافة ألاَّ أن يسلك إلى غرضه سبيل الملاينة ويبذل من الحكمة والمصانعة مقداراً عظيماً فإن لم يفعل يؤذن بحرب ويؤذي بكل لسان.

وإنا لباحثون في الأطوار التي يمر بها الشاب الإنجليزي والبيئات التي يجتازها من بدأته الأولى إلى أن يضع قدمه في معترك الحياة لنوّفي الموضوع بعض حقه من البيان والشرح فنقول:

يمر الانجليزي من مدرج طفولته إلى أن يكون كهلاً ببيئتين عظيمتين كلتاهما عالم في ذاته كامل في عُدته وهما البيت والمدرسة فيهما صقلاً ويصاغ صوغاً يبقى أثره فيه مدى الحياة.

وفي كلا الموطنين يعني بتربيته تربية كاملة جامعة بين إنماء الجسم وتهذيب الخلق وتثقيف العقل لأن الانكليز لا يَفرقون كغيرهم بين التربية والتعليم ولا يستطيعون أن يتصوروا في أنفسهم أن يقتصر عمل البيت أو المدرسة على تخريج رجال أفاضل مهذبين لا علم عندهم أو علماءٍ متبحرين لا أخلاق لهم ولا خير فيهم.

فالتربية والتعليم عندهم يمتزج بعضهما ببعض لا ينفصل أحدهما عن الآخر حتى ان لغتهم نفسها على سخائها لا تجود عليهما إلا بكلمة واحدة جامعة للمعنيين هي كلمة (Education) «تربية».

وإذا كانت الحكمة الإِلهية قد جعلت تطور الإِنسان في أدوار حياته سائراً على خطة معينة فكان نم جسمه وتيقظُ وجدانه سابقين ظهور العقل وجب على المربين أن يحتذوا مثالها ويجروا على رسمها بادئين بتربية البدن وتهذيب الخلق ومعقبين بتثقيف العقل، والإِنجليز تلاميذ الطبيعة ومغرمون بتقليدها في كل شيء.

التربية البيئية:

يتألف المجتمع الإنجليزي من قبيلين من الناس: العصاميين وهم الذين عركوا الدهر وذاقوا حلو الأيام ومرها ودرسوا أخلاق الأمم في مدرسة الحياة العملية (self-Made Men) والعظاميين المرّبَّين في المدارس الذين تفيئوا ظلال العلم في الجامعات العتيقة (University

Men) وكلاهما من قبلُ منشأ على أساس واحد فيه طابع التربية البيتية.

البيت:

عند الإنجليز لفظ وجيز (**Home**) يعبرون به عن البيت وهو عندهم لفظ حسيب قيم قد يقل وجود كلمة تماثله في اللغات الأخرى.

ذلك البيت بمعناه المفهوم عند الانجليز هو الحرم المحروس الذي لا يأوي إليه إلا أَفراد الأسرة وله في قلب كل انجليزي منزلة لا تساميها منزلة يلهج بذكره أينما حل أو رحل ويطرب أسماء أحاديثه المعذبة وتذكاراته المحبوبة التي يعتقد أنه وحده هو الذي يحس جمالها ويدرك كنه تأثيرها ويتغنى بمجده وشرفه شعراً ونثراً بأنه حمى يتمتع الإنسان فيه بالراحة الهادئة والاستقلال التام ينعم بالأمن الذي لا وحشة معه والصفاء الذي لا كدر فيه.

فإذا دخلته هموم الدنيا الخارجية أو سمح أحد الزوجين لأجنبي بعيد عن الجد والأدب أن يطأ بقدميه عتبته فهو ليس بالبيت المنشود وإنما هو بناء سقف بسقف وأضيء من الداخل بمصباح (أعني أن له صورة البيت وليس ببيت).

البيت الخليق بهذا الاسم عندهم هو ذلك الحرم المقدس المحفوف من جوانبه برعاية الله لا يعتوره الفساد من بين يديه ولا من

خلفه ولا يدخله إلا من يقابل فيه بالترحاب، من المخلصين من الآل والأصحاب. «وقد ترجمته بالبيت لأَن البيت يأتي بمعنى العيال فيقال بيت الرجل عياله ويأتي أيضاً بمعنى الشرف فيقال بين العرب شرفها».

عميد البيت

وعميد البيت هو الزوج القابض على زمامه المتصرف في أموره يدبر شئونه على ما يرى غير مدافَع ولا منازَع فهو الذي أسسه وشيد دعائمه والقانون والاجتماع يلقيان على عاتقه تبعة القيام بأعبائه وخديه للتي هي أقوم حتى يبلغ به أقصى درجات الكمال، لا يسأل على ذلك أجراً إلا الطاعة والاحترام فهو يريد أن يكون أباً محترماً قبل أن يكون أباً محبوباً وقد انطبعت هذه الإرادة في نفوس بنيه وذويه حتى إنك لتسمع اشاب الانجليزي– أكثر ما يكون– يخاطب أباه بكلمة **Sir** (سيدي) كما يخاطب الخادم سيده، وقد لاحظ كاتب أمريكي مع شيء من الدهَش والاستغراب أن المرأة في انجلترا تعتبر الرجل أرقى منها مكانة وأسمة منزلة فقال «إن انجلترا هي جنة الرجال».

والسبب في هناء الانجليزي في بيته ورغَد عيشه أنه أولاً يعرف كيف يحترم نفسه وثانياً أنه هو الذي أسس البيت وشيد أركانه على نفقته فكان سيده لأن أكثر الإنجليزيات يتزوجن فقيرات لا يقدمن

مهراً فلهذا ترى الانجليزي محترماً في بيته، أما الذين يطلبون المال من الزواج فهؤلاء لهم أن يطمعوا في المال كما يريدون، ولكن هيهات أن يطمعوا في الاحترام. بل لا بد لهم من النزول عنه لمن اشترينه منهم بأموالهم ولا ريب أن النزول عن الاحترام نزول عن الحياة فإن الاحترام غذاء النفس كما أَن الطعام غذاء الجسم فهما في قوام الحياة سيَّان ولله در الأمام علي إذ يقول: احتج إلى من شئت تكن أسيره، واستغن عمن شئت تكن نظيره، وأحسن إلى من شئت تكن أميره.

وقد أكد ذلك الاحترام ما خوله القانون إياه من السلطة التامة، والتصرف المطلق في أموال الأسرة بأكملها، فأمره طاعة، وإرادته ماضية على زوجهِ وولده، ولا يقتر على نفسهِ ابتغاء التوسعة عليهم، ولا يتكالب على جمع المال ليتركه من بعده لهم.

وقصاراهُ أنهُ بمقتضى الرسوم القومية والقانون أحياناً برد ضيعة بعينها أو وصية خاصة إلى بكر أولاده، كما صنع أبوه من قبل، وبعد ذلك هو ملك مطلق في مملكتهِ محترم بين رعاياهُ احتراماً يكاد يكون دينياً. ولا كذلك الأب الفرنسي فإنهُ في أسرته أشبهُ برئيس منتخَب في مجلس نيابي أسس على المشادّة والمناقشة، يقول مستر همرتن في كتابهِ (الانكليز والفرنسيون) المطبوع سنة ١٨٩١: سألت فرنسياً من أصدقائي، ما بال أولادك يكلمونك لحرية تامة دون أن يظهر عليهم أنهم متأثرون بهيبة السلطة الأبوية فأجابني وكيف ننتظر منهم

احتراماً واعتباراً ونحن قد علمناهم احتقار معتقدات آبائنا وأنظمة أجدادنا، أننا لم نغرس في قلوبهم خلة الاحترام.

قال وأما نظرية الانجليز في احترام الأبناء للآباء، فتؤخذ مما يلي: عرفت شاباً كان لا يذهب إلى الكنيسة إلا نادراً ولما رزق أربعة من الأولاد وبلغ البكر منهم سن العاشرة أخذ يذهب إليها بنظام لاعتقاده أن الدين من ألزم الأمور العاملة في التربية، وأنه من الواجب عليه أن يكون قدوة حسنة لأولاده كلما تحركوا وأيفعوا، وكان يلعب (التنس) يوم الأحد في حديقته فأبطل هذه العادة أيضاً تعزيزاً لما يتلقاه أولاده في المدرسة من احترام ذلك اليوم، وترك العمل فيه اقتداءً بالخالق جل شأنه على ما يعتقدون، واستن لنفسه من ذلك الحين السّنة الآتية: احترِم إِذا شئت أن تُحترَم.

الزوجة الإنجليزية

أما المرأة الانجليزية فتمتاز بالشجاعة والإِقدام والصبر على احتمال المشاق لا تهتم كثيراً بما يأتي بهِ الغد ولا تهاب ما قد تضمره لها الأيام والأسفار البعيدة من المباغتات والمفُاجآت فهي ظل زوجها حيث سار تشاطره الخفة في الحركة، والمضاء في العزيمة بما أُوتيت من بسطة في الجسم ومتانة في الخلق فهي زوجة تحرص قبل كل شيء على القيام بواجبها نحو زوجها على أفضل ما يكون، ثم تُعني بتربية أولادها على أكمل وجه وأتمه، فهي زوجة قبل أن تكون أُماً، بخلاف

المرأة الفرنسية فإن حبها لولدها يَقدُم كل شيء ثم يأتي بعدُ حُبها لبعلها حتى كأنما هي أنُّ قبل أن تكون زوجة، وقد تغلو في ذلك إلى حد الأخلاد إلى الراحة والأمن والاكتفاء بقليل من سعادة داخلية يسيرة، فلا تجشم زوجها صعاب الأسفار، وركوبَ الأخطار لأنها لا تبغي الانفصال عن أولادها، والتغرب عن أوطانها، فكم من همم ثَبطَتْ، وأعمال أَحبطت، ومشروعات أَبطلت بركونها إلى الدَّعة. وإفراطها في الحنو على أولادها.

ذهب العالم الطبيعي الفرنسي «ملن إدواردز» لزيارة اكسفورد مرة فأخذه الدهَش من قلة ما يدرس فيها من العلوم وبينما كان ذات ليلة يستريض مع من كانوا مكلفين مرافقته، وكان من بينهم أستاذ الجيولجيا وهو معروف بالصراحة التامة، إذ قال لهم ما بال الشبان الانكليز لا يتعلمون في المدرسة إلاّ قليلا من اللاتينية واليونانية ويقضون بقية أوقاتهم في لعبة الكركيب والسباحة والجدف ثم يصبحون من غير عناء رجالاً من الطراز الأول وحكاماً حاذقين وسياسيين محنكين كبلمرستون وغلادستون فأجابهُ أستاذ الجيولجيا من فوره "They have got English Mothers" ذلك لأن لهم أُمهات انجليزيات والجواب على بعده من الظَّرف والمجاملة اللائقة بالضيف فيه أكبر قسط من الحقيقة لأن الأم المهذبة من أهم العوامل الناهضة بالأولاد إلى ذِروة السعادة والمجد ولقد أحسن شاعرنا حافظ إذ يقول:

والأم الانجليزية تشغف بأولادها وتقوم بالواجب لهم خير قيام فترضعهم بنفسها وتشرف على حركاتهم وسكناتهم كامل الإِشراف ولكن لا يرى على وجهها أو من خلال أعمالها ذلك الحنو الزائد وتلك الشفقة التي تفيض عادة من غيرها من الأمهات فهي تسير في تربيتهم على قاعدة قويمة وخطة مرسومة فتدعهم من نعومة أظفارهم يكابدون الحوادث، ويلمسون الأخطار بأيديهم، ويتعرفون ما حولهم، ليميزوا الخبيث من الطيب، وليفرقوا بين الغث والسمين واضعة نصب عينيها أمراً مهماً وهو غرس بذور الرجولة في نفوسهم وتكوين مبادئ الشجاعة والشهامة في طباعهم حتى إن الواحد منهم إذا همَ بالبكاء عند وقوعه على الأرض ابتدرته بقولها لها **Be a man**"" كن رجلاً ولا تبك، فإن البكاء المسموح به لأختك عار عليك، يسمع الكفل عشرين مرة في اليوم كن رجلاً ولا تبك فان البكاء عار على الرجال فتؤثر في نفسه بالتكرار والاستمرار، وقد شوهد كثير من الأطفال قبل أن يعرفوا القراءة والكتابة بلغ من تربيتهم على هذا النمط أنهم يملكون أنفسهم ويضبطون عواطفهم حتى إنهم ليُمسكون عن البكاء إذا مسهم ضر أو نالهم أذى، وبينما هم كذلك يتدرجون في مدارج الرجولية ويمرنون على تذليل العقبات إذا الشاب الفرنسي

لا يزال غراً لا يعي من ذلك شيئاً لوجوده بين اثنين، أم تدعهُ لحظة يعاني المصادفات ويقاوم الطبيعة، ممسكة برجليهِ حتى لا تزلَّ قدماه إذا كان صغيرا، وبزمامه كي لا يركب شططاً أو يأتي غلطاً إذا كان كَبيراً، وأب يظل نهاره يكدح في جمع ثروة يتركها له من بعده فهو بين أبوين، أم تسعد له الحال، وأب يكفل له الاستقبال.

حكاية مدام (أ) ومدام (ب)

مدام (أ) باريزية تقطن باريس وتربي أولادها على النمط الفرنسي طبعاً.

ومدام (ب) باريزية أيضاً ولكنها سكنت مدينة لندن فربّت أولادها على الطراز الانجليزيّ.

وحدث أنهما حضرتا معاً في العطلة الصيفية إلى ريف فرنسا وأقامتا بقريتين متجاورتين.

وكانت المسافة بين مدام (أ) ومدرسة ابنها ٥٠٠ متر، على حين كانت على مسافة بين منزل مدام (ب) ومدرسة ابنها أربعة كيلو مترات، ولكن مدام (أ) مع قرب مدرسة ابنها من منزله كانت ترافقه إليها ذهاباً وجيئة لا تفتر عن ذلك يوماً واحداً.

أما مدام (ب) فقد وكلت ابنها في ذهابه إلى مدرستهِ البعيدة عن منزله إلى نفسه فكان (وهو من سن ابن صاحبتها) يخرج من

البيت وحده مبكّراً متأبّطاً كتبه كالرجل المعتمد على نفسه ويقطع ٤ كيلو مترات ذهاباً ومثلها إياباً دون أن يشغل بال أُمهِ بهِ.

تلك هي شفقة الأمّ الفرنسية وهذه شجاعة الأمّ الانكليزية وكلاهما أمر حسن تحمد المرأتان عليهِ وإن آثرنا الثانية على الأولى.

ولكن ماذا ترون في الأم المصرية التي تسلم بنيها وبناتها إلى الخدم وهم كما نعهد من أجهل الناس وأحطهم تربية وأسوئهم أخلاقاً.

لماذا لا نصحب أبناءنا وبناتنا إلى مدارسهم ومواطن حاجاتهم ونشفق عليهم وهم أفلاذ أكبادنا أن يقيض على أزمتهم من الخدم مَن يخشى أن يؤثّر فساد أخلاقهم فيهم.

لعمري إنها ثُلمة في بناء تربيتنا المنزلية لا بدّ من سدّها وعلى من عللنا الاجتماعية لابد من علاجها لأننا ناهضون والناهض لا يدع فاسداً إلاّ أصلحه ولا يعرّج على معوجّ إلاّ قوَّمه ولا يلوي على شعث إلاّ لمه.

الأسرة الانجليزية

يرزق الانجليزي عادة جماً غفيراً من الأولاد يجيئون متتابعين فيعني بوضعهم في حجرة منعزلة خاصة بهم تجرى عليهم فيها أحكام التربية في سنيهم الأولى وتسمى بالَمْربَي، (**Nursery**) والعوامل

الأساسية التي يجب أن تتوافر في الَمْربَي ثلاثة: الأم والمربية والهواء، وقد وصف الشاعر الشهير راسكن الَمْربَي الراقي ذاكراً عهد طفولته فقالك إِنهُ حجرة في الطبقة الأولى من المنزل فسيحة الأرجاء متجددة الهواء وفيرة الضوء تامة النظافة غاية في السذاجة ينام فيها الطفل ويأكل ويرتع ويلعب لا يخشى كسراً لآنية ثمينة أو اقلاق راحة أُمه المريضة أو التهويش على أبيهِ المنكب على عمله، بها حوض كبير يستحمون فيهِ كل صاح بالماء البارد ليزدادوا قوة ونشاطا، ويراعى في لباسهم السذاجة والسعة والنعومة إِذ ليس الغرض منه الزينة والتباهي بجمال الثياب بل الغرض الوقاية من البرد والمطر والهواء مع تمتع الأعضاء بالحركة الحرة والجري واللعب على ما يشتهي الأطفال. وهم يأكلون معاً في مواعيد مقررة وطعامهم غير متأنق فيهِ ولا متكلف. ويخرجون كل يوم للتنزه صيفاً وشتاءً مستنفدين الساعات في الجري والوثب والطفر وتسلق الأشجار والتدحرج على الأعشاب متحملين في ذلك تبعة أعمالهم وعليهم وحدهم يقع الضرر الذي ينجم من عدم إِعمال الروية والتبصر في عواقب الأمور قبل البدء في تنفيذها.

هذا هو الْمّربي الحائز جميع الشروط وما كاد يصفه كاتب ثقة كراسكن ويشير به حتى تبعهُ قومهُ في كل ناحية واتخذته جميع الأسر نموذجاً حسناً يقتدون به وينسجون على منواله، والانكليز أكثر الناس اتباعاً لأقوال حكمائهم وعلمائهم وأسهلهم قياداً واستسلاماً لأوامر رؤسائهم فإذا قال راسكن فالقول ما قال راسكن وإذا قال

سبنسر فالقول ما قال.

وتلك الطاعة المنبعثة عن الرضا الخالصة من شائبة الإكراه هي من صنع التربية الإنكليزية التي اتقنت غرس الفضائل الاجتماعية العالية في نفوس أفراد الأمة لأنها الأساس الذي يقوم عليه بناؤها.

وأذكر على سبيل الاستطراد حكاية لا تغرب عن ذهني كلما ذكرت الطاعة.

اشتهرت قبيلة عبس بالحكمة في القول والسداد في الرأي فقيل لرجل منهم: ما أكثرَ صوابكم فقال نحن ألف رجل وفينا حازم واحد وكلنا نطيعه فكأنا ألف حازم.

وبينما الطفل الانجليزي يشب في المربي على مبادئ الديموقراطية الصحيحة يعيش فيه كفرد من أفراد المجتمع له ما لهم وعليه ما عليهم لا سلطان له على أحد من إخوته ولو كانوا أصغر منه سناً نجد الطفل الفرنسي يعيش في حضن أمه ملازما لها ملازمة الظل للعود حتى لقد يلهيها عن العناية بالتزين والتجمل ويجلس على المائدة مع أمه وأَبيه وإِخوته متى استطاع الجلوس فيهوش عليهم. ببكائه ويوسعهم من تدلله وصخبه والكل خاضع لأوامره ومنفذ لرغائبه فعجيب ألاّ يشب هذا على حب الذات وقلة الاكتراث للتبعات.

إذا انتهى طور الطفولة انتقل الأولاد منه إلى مدرسة هي في نظر الانجليز أهم المدارس نفعاً وأنجعها في نفوس النشء ألا وهي الأسرة.

وكثير من الأمم يعتقدون أن الخير كله في معالجة أبنائهم بالذهاب إِلى المدرسة ويظنون أنه خير مكان يقضي فيهِ الطفل شطراً وافراً من عمره، أما الرأي العام في انكلترا فلم يذهب مذهبهم ولم يرد أن ينتهج مسلكا يناقض النواميس الطبيعية وبديهيات المنطق.

يقول الانكليز كيف يعقل أن يكون بيت الإنسان أقل البيئات ملاءمة لأولاده ومعاشرته أَقل فائدة من معاشرة الغرباء؟ ألا أن الانكليز يعدون عيباً وعاراً ألا يكون الإنسان هو المدرس الأول لابنه وألا تكون بيوتهم مجهزة بكل أداة صالحة للإعداد الكامل للطفل وغرس أصول الفضائل في نفسه فكأني بهم يقولون:

«ماحكّ جلدك مثل ظفرك فتول أنت جميع أمرك»

وإن كثيراً منهم يسيئون الظن بالمدارس ويرون أنها أردأ البيئات وأقلبها صلاحاً لتهذيب الأخلاق لاختلاط السليم فيها بالأجرب.

لذلك لا يبكر الانكليز بفصل أولادهم عن البيت إلى المدرسة إلا قبيل العاشرة من عمرهم من بعد أن ينقش على صحائف أفئدتهم صورة جميلة من البيت وتذكارات الطفولة لا يزال يطوبها وينشرها

ويتغلغل في نواحي نفسه حب الوطن مهما بعدت الدار وشط به المزار.

فليس عجيباً أن يجمع الانجليزي بين متناقضين: إنفاق زهرة العمر وريعان الشباب مهاجراً متغرباً تشرق به قاصية الأقاليم كالذين لا أهل لهم ولا وطن يضمهم، والاغرام في آن واحد يبيته والوّلوع بحب وطنه رافعاً عقيرته متغنياً بهما أينما حل أو رحل.

وإذا لم تتمكن الأسرة من القيام بهذا الواجب لأَسباب قاهرة أو كان الأولاد قد نضجت أفكارهم ونزعوا إلى علم أوسع ومعارف أرقى مما يتهيأ لهم في منازلهم وتحت رعاية آبائهم يرسلون إلى مدارس خاصة (**Private School**) يقوم بشؤون التربية فيها رجل وامرأته، أما الرجل فهو من أفضل الناس رقة حاشية وكمال أدب وكرم عشرة وحسن معاملة فهو ممن يسميهم الانجليز (**gentleman**).

ولقد أحسن الشاعر العربي في وصف ذلك السري المقصود بتلك الكلمة الانجليزية حيث يقول:

ومن ذا الذي ترضى سجاياه دائماً ... سوى الفاضل الندب الأديب المجرب

تــراه بمــاء اللطــف طَهَّــر ثوبــه ... وزيـــن حَـــوْباه بخلـــق مهـــذب

إلى هذا السري الذي أكثر ما يكون أستاذاً من أساتذة الجامعة (**Aggrégé**) يدفع الوالد ولده وفلذة كبدة واثقاً من أنه سيتعهد بذور الصلاح في نفسه ويجعل يومه خيراً من أَمسه ويغرس في نفسه

مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم عالماً أنه لن يسمع ابنه معه هُجراً في قول ولا يرى منكراً من عمل. يقبل هذا السري في داره من عشرة إلى عشرين تلميذاً يعيشون معه ويقوم بتربيتهم وإعدادهم للتعليم الثانوي وإذا اضْطُر إلى قبول أكثر من آخر من اخوانه المدرسين.

وأما الزوجة فهي من فضليات النساء تشرف على كل ما هو قوام للحياة الداخلية من مأكل وملبس وما يتصل بهما من الشؤون.

وهذا الطراز من المدارس كثير الانتشار جداً في انجلترا ونقتصر هنا على ذكر اثنتين منه نضربهما مثلا لقومنا لعل فريقاً منهم ينصبون أنفسهم لخدمة بلادهم لهذا النوع من التعليم وفيد عدا ذلك لهم الحرية والغنى والشرف الدهر كله.

أولهما مدرسة (**Bowden House School**) بالقرب من (**Harrow**) وهي تقبل التلاميذ من سن السابعة إلى الخامسة عشرة، ويتقاضى أستاذها عن كل تلميذ من ٨٠ إلى ١٠٠ جنية في العام. والثانية مدرسة في **Isle of Wight** قام بتأسيسها جماعة من خريجي (**Cambridge**) واشتروا لها قصر الكونت (**Yarborough**) وتبلغ مساحته ٧٠٠ فدان انكليزي ولا تقبل هذه المدرسة على اتساعها المفرط أكثر من خمسين تلميذاً.

وفيها قسم لتعليم الحياة الاستعمارية (**Colonial Life**) فيمرّن الأطفال في هذا القسم على الأعمال الزراعية ويعطون ضيعة يقومون

بإدارة شؤونها ويعلمون اللغات الشائعة (الحية) وخاصة الهندوستانية، ويمنح الطالب الذي يبلغ سن السابعة عشرة حق اصطياد طيور المدرسة. وشجاعة تلاميذ تلك المدارس يضرب بها المثل.

وقد حكى مسيو تين **Taine** في كتابه **Notes Sura I. Angleterre** أنه رأي غلامً صغيراً ممتطياً ذوناً ووراءه أخواته الكبيرات وفيما هم سائرون في وسط الحقول إذ رأوا ثوراً ضخماً يتطاير الشر من عينيه فالتفت الغلام إلى أخواته وقال لهن أيتها الفتيات اتبعنني ولا تخفن مكروهاً.

مما تقدم يرى أن الدعامة الكبرى التي يرتكز عليها صرح التربية الانجليزية إنما هي الثقة بالأطفال بمجرد أن يدرجوا ويفهموا إذ يوكلون إلى أنفسهم في جميع أمورهم: في المربي ثم في البيت ثم في المدرسة.

نعم يثقون بهم في أعمالهم فيتركون لهم الحرية التامة في اختيار السبيل التي يسلكونها بعد إيضاح الجادة لهم وإنارة الطرق أمامهم، فإذا لم يجيدوا الاختيار فعليهم وحدهم يقع الضرر وكذلك يثقون بكلامهم فهم صادقون في حديثهم مصدقون في أهلهم وخلطائهم إلا أن تقوم حجة على غير ذلك.

وتلك هي الطريقة المثلى التي هداهم إليها المُربِّي الكبير الدكتور تومس أرنولد من أكثر من نصف قرن كما سنذكره بعد وهم يدينون

بها ويحرصون أشد الحرص عليها. والغرض الذي يرمون إِليه من أتباع هذه الطريقة هو تعويد أولادهم النشاطَ في العمل والصراحة في القول والاستقلال في الرأي والدُّربة على الثقة بالنفس والاعتماد عليها وإيقاظ الشعور بالتبعة فيهم وقدرهم إياها منذ الصغر قدرها فهم واثقون بأنفسهم وجديرون بالثقة فيهم:-**They are self-reliant and reliable**

هذه هي أهم الفضائل التي يجهز الانجليز بها أبناءهم للنزول إلى معترك هذه الحياة لأن الولد أولا لا يعتمد على ميراث من أبيه الذي خوله القانون حرية التصرف في أمواله وكثيرا ما قد يأتي على رأس المال.

والأب الإِنجليزي من جهة ثانية لا يرى حقاً عليهِ الانفاق على أولاده وتعليمهم إلا إلى سن السادسة عشرة من أعمارهم ثم يتركهم لأنفسهم ويلقي حبلهم على غاربهم ما عدا البكر منهم وإن كان ذلك في غير الأسر العالية والعشائر الغنية.

لهذا وذاك ينزل الشاب الانجليزي إلى ميدان الحياة وليس يخامر فكره أقل شك في أن عبء حياته كله ملقى على عاتقه وإن سعادته معلقة على جده وسعيه وإن ليس له سلاح إلاَّ الاعتماد على نفسه.

فهو مسوق إلى العمل بقانون الضرورة مضطر إلى السعي بحكم الحاجة، والحاجة تفتق الحيلة. ومما يجدر بنا أن نلاحظهُ ولا نغُضى عنهُ

أنّ أخْذَ الانجليز أنفسهم بالتربية على هذا الوجه من المغالاة في الاعتماد على النفس والاعتداد بالذات **Individualism** من شأنهِ أن يضعف الرابطة القومية فيهم.

لذلك كانت الأسرة الانجليزية محصورة بين جدران البيت منتهية بانتهاء حدوده فلا يكاد الانكليزي يعرف ذلك الجيش الجرار من ذوي قرابتهِ وأولى رحمه من ذوي قرابتهِ وأولى رحمه من الأعمام والأخوال والعمات والخالات ومن يدلي إليهم بسبب أو يمتون غليه بلحمة النسب وهو يقول في أولاد العم: ما نَفْع أبناء الأعمام إنهم لأصدقاء ثقلاء وإن الصديق الحق هو من وقع عليه اختيارك واصطفيته لنفسك.

وإن مثل الحكاية الآتية لبرهان على صحة ما نقول:

تقطن مدينة لندن أسرة إنكليزية مؤلفة من أَب وأم وابنتين ويتمم أعضاء هذه الأسرة ابنان انفصلا عن محيط دائرة المنزل يحترف أحدهما مهنة الزراعة على بعد نصف ساعة من لندن ويتجر الثاني في الماشية ببلاد الناتال فمر على الأول ستة أشهر كاملة لم يَحْدُ به الشوق أثناءها إلى أن يزور أهله بمدينة لندن على قرب مزارهم منه:

وأقبرُ ما يكون الشوق يوماً إذا دَنت الديارُ من الديار

أما الثاني فكان مبلغ ذكراه وحنينه إلى أهله أن يكتفي في كل

عام بكتاب واحد يبعث به إلى أمه أعطف الناس عليه وأبرهم به، وكذلك كانت حال سائر الأسرة المقيمة بلندن فإن البنتين على رقة عواطفهما كانتا إذا جرى بينهما الحديث عن أخويهما البعيدين عنهما لا يبدو منهما ما يدل على أنهما متألمتان لجفائهما متأثرتان من عدم مكاتبتهما.

المحاضرة الثانية

التعليم الثانوي

إذا بلغت سن الطفل الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة وأصبح بفضل المران في البيت أو المدرسة الخصوصية والدربة على العمل فتى قادراً على احتمال معاشرة الغرباء ودفع أذى الخلطاء ألحق بالمدارس الثانوية وتسمى عندهم بالمدارس العامة «**Public School**».

وقد امتازت هذه المدارس بتربية أبناء الطبقات الحاكمة والأسر الغنية فأخرجت بلمرستون وجلادستون وأَمثالها من نوابغ الانجليز وكبرائهم.

وهذه المدارس هي التي نفذت فيها لأول مرة طريقة الوصايا التي هي أساس التربية الانجليزية.

وإني لا يسعني في هذه العجالة الطوافُ بتفاصيل كل واحدة منها لأن هذا يستغرق عدة محاضرات. لذلك أقصر الكلام على إحداها وهي مدرسة **Rugby** لإحرازها قصب السبق في إدخال اصلاحات هامة في التعليم الثانوي في انجلترا بفضل نبوغ ناظرها

الحكيم الدكتور تومس أرنولد.

والغرض الأول من التربية في هذه المدارس هو إعداد الطفل لأن يكون في المستقبل رجلا شريفاً شجاعاً ووطنياً عاملا. ومن المثلين الآتيين يتبين مقدار الارتباط بين طلاب المدارس وذلك الغرض الجليل:

(١) كتب أحد الطلاب بمدرسة **Rugby** في صحيفة المدرسة السنوية مقالا جاء فيه: إننا معشر الطلاب نكوّن اجتماعاً حقيقياً نعيش فيه لا لنتعلم فحسب بل لنتعلم ونعمل ونحيا كأطفال سيكونون في الغد رجالاً.

(٢) وقال توم بروان في كتابه «**Tom Brown School days**» (حياة توم بروان المدرسية) وهو كتاب وضعه أحد خريجي هذه المدرسة أتى فيه على حياة الشاب الانجليزي من بداءتها في المدرسة إلى دور الزواج وهو كتاب كثير الانتشار بين المتعلمين في انكلترا وكل واحد منهم يقرأ فيه صفحة ماضية من حياته الخصوصية وصورة مطوية من تذكاراته المدرسية.

قال في أول الكتاب إنه وصل إلى المدرسة في الساعة الثالثة بعد الظهر راكباً عربة (لأَن خطوط السكك الحديدية التي تتقاطع الآن في **Rugby** لم تكن أنشئت بعد) وبعد أن استقر به المكان تذكر النصائح التي ألقاها عليه أبوه قبل مغادرته البيت وكذلك مصافحته

إياه باليد لأول مرة في حياته بدل التقبيل الذي من العادة أن تحيي به الأطفال وفي ذلك رمز إلى أن الذي يسلكه أبوه في المدارس العامة رجل ينبغي أن يُحَيَّا بتحية الرجال.

أما تلك النصائح التي زوده بها أبوه فإنها آية في الحكمة وغاية في السداد فقد قال أبوه: أني ترددت طويلا في اختيار الكلمة التي أجعلها له عظة ماثلة بين عينيه في سفره فقلت في نفسي:

إذا أنا نصحت له باجتناب ملهيات الطريق وضبط النفس من الوقوع في المفاسد فربما لا يفهم لما أقول معنى ولعلي بذلك أكون نبهته إلى ما كان مصروفاً عنه وإّن نصحت له بالجد في الدرس والتشمير في تحصيل العلوم ليصبح عالماً فليس ذلك غرضي أو بالحري ليس ذلك إلا جزءاً من الغرض الأكبر الذي أنصبه له وأتمنى أن يناله.

وبعد خواطر جالت ثم زالت وقع في نفسي أن أوصيه بأن يكون رجلا شجاعاً شريفاً نشيطاً وطنياً سَرِيًّا مسيحيا « **Christian Gentleman**» ولا أتمنى له المزيد.

من هذين المثلين ينبين أن الغرض الأول من التربية الانكليزية إنما هو تكميل النفس بالفضائل العالية وتحليتها بالأَخلاق الكريمة. أما تكوين العقل وتثقيفه بالعلوم والمعارف فليس إلا جزءاً من ذلك الغرض الأسمى فهم أحق من يتمثل بقول شاعرنا:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن همُ ذهبت أخلاقهم ذهبوا

والآن أرى من الواجب أن أقول كلمة عن ذلك المربي الكبير الدكتور تومس أرنولد الذي كان ناظراً لهذه المدرسة أربع عشرة سنة حارب في خلالها كثيراً من الطرق العقيمة التي كانت متبعة في المدارس الإنجليزية ونجح في وضع مبادئ جديدةٍ حازت الرضا من الانجليز عامة وسرت من مدرسته إلى سائر المدارس الأخرى.

وإذا تناول البحث مسألة التربية والتعليم في انجلترا فإنهم يبدؤون باسم تومس مقروناً بالإجلال والاحترام ومع أنه قد مضى على وفاته نحو ثمانين سنة فهم لا يزالون إلى اليوم يقدسونه ويعظمون ذكره كما كانوا يقدسونه في أول يوم بدا لهم فيه سر إصلاحاته الحكيمة التي يسبروا غورها إلا بكرّ الأيام ومر الأعوام.

كان تومس أرنولد في أول قسَاًّ خامل الذكر ذا روحٍ متوقدة وغيرة مشتعلة ظل يجاهد في سبيل التربية زماناً دون أن يشعر بنبوغه أحد وكان ذا نظر ساحر يقرأ في الوجوه ما تكنه الضمائر فكان لا يقوى أحد أن يكتمه أمراً أو يخفي عنه سراً هذا إلى أنه كان ذا تأثير يشبه تأثير المغناطيس فكان لا يجتمع به أحد إلاّ اجتذبه إليه وسحره بتعاليمه وقد قرأت في دائرة المعارف الانجليزية أنه لما خلت وظيفة ناظر مدرسة Rugby سنة ١٨٢٨ طَلَبَ إلى مجلس إدارة هذه المدرسة الالتحاق بها وشفعه بشهادة قال كاتبها: إذا وقع الاختيار

على المستر أرنولد فانه سيغير وجه التربية ويقلبها رأساً على عقب في جميع المدارس العامة في انجلترا وهاك النص الانجليزي:

If Mr. Arnold were elected he would change the face of Education all through the public Schools of England.

ولقد صدقت فراسة ذلك الكاتب في أرنولد وكأني به يقول له بلسان البارودي:

وَفَيْتُ بما ظنَّ الكرام فراسة   بأمري ومثلي بالوفاء جديرُ

وقد بقي يعالج تربية النشء بما أوتي من حذق ومهارة ويبثّ فيهم روحه ومبادئه الجديدة حتى أخرج لبلاده فتياناً شداداً نافعين ورجالاً قادة كانوا هم أبلغ إعلان لفضله وعلو كعبه وأكبر عامل في إذاعة صيته في أركان البلاد الانجليزية.

وكان تومس أرنولد من ذلك الصنف من الشبان الذين يهتمون بالشؤون العامة ويتتبعون سير الحوادث في بلادهم بكل نشاط وإمعان فكان لا يكاد يمر يوم إلاّ ويؤلف في التاريخ (تاريخ الرومان) ويكتب المقالات الرائقة في المجلات العلمية ويكاتب الجرائد السياسية ثم يجد مع هذا من الوقت ما يكفي لإدارة مدرسته إدارة حكيمة.

وكان يقول في هذا الصدد أني كلما شحذت ذهني بالمسائل الخلقية وجلوته بالمرانة على الكلام في أهم الأمور السياسية عاد ذلك بالفائدة الجم على مدرستي. وفي سنة ١٨٤١ وصله كتاب من اللورد

ملبورن رئيس الوزارة إذ ذاك يعرض عليه وظيفة مدرس للتاريخ الحديث في جامعة أكسفورد فقبل شاكراً وفرح لذلك فرحاً شديداً وأقبل الطلاب على درسه إقبالا وكانوا يتنافسون في الحصول على مذكراته وطبعها ونشرها بين الناس. ولكن مع الأسف لم تدم سعادة الطلاب به طويلا فما هلَّت سنة ١٨٤٢ حتى وقع غير المنتظر وحدث ما ليس في السبان وفوجئوا بنبأ وفاته بذبحة صدرية لم تمهله إلا بضع ساعات بُذِل له في خلالها كل إسعاف وكل علاج ولكن ماذا يفيد العلاج إذا حم القضاء وجاء الأجل.

وقد استولى الهلع على طلاب المدارس الذين كانوا يتفانون في حبه وأخذوا يتساءلون فيما بينهم عن رحى العمل في المدارس هل ستظل دائرة بعد أن وقف محركها الأكبر وخفت صوت سائسها الحكيم وإنا نذكر هنا طُرَفاً من آرائه السديدة في التربية فنقول:

(١) ليس من مذهب تومس في التربية مراقبة الأطفال مراقبة دقيقة وقد قال في ذلك أني أريد أن أعلم الأطفال أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم وذلك لعمري خير من أن أحكمهم بنفسي.

ذلك قولٌ حكيم وفكر ثاقب يجب أن يتدبره ويفهم مغزاه أولئك المربون الأتوقراطيون الذين يحاسبون الأطفال على الهمسة ويعاقبونهم على الالتفاته ويريدون أن يقبضوا عليهم بيد من حديد.

يقول تومس أرنولد إن هؤلاء واهمون في فهم رسالتهم إذ ليس

الغرض من التربية أن نُخرج عبيداً ضعافاً أذلاء بل الغرض أن نخرج سادة أحراراً كبار النفوس يتمتعون بالرأي والحرية التامة في كل ما نعرضه عليهم من الأعمال. وإن سلبهم هذه الحرية أو محاولة سبهم إياها لهو عين الخطل والخطر فلندع الأطفال ينفردون بأنفسهم ويخلون بما حولهم ويصرفون قواهم ويجولون فيما بين يديهم من الأشياء ليتعرفوا السلطة ويذوقوا طعم الامارة ويشعروا من نشأتهم بالتبعة التي هي دائماً قرينة الرياسة ولازمة لها.

(٢) حدث في المدرسة مرة اضطراب أفضى إلى أبعاد بعض الطلبة فقام تومس فخطب فيهم خطبة شهيرة سُجلت له في تاريخ التربية قال:

ليس من الضروري أن يوجد بالمدرسة ٤٠٠ طالب ولا مائة ولا خمسون ولكن من الضروري إلا يوجد بها إلا سادة مهذبون.

فكانت خطبته هذه على قصرها برهاناً صريحاً على فساد الرأي السائد إذ ذاك في فرنسا وانجلترا القائل بأن المدارس تصلح الطبائع الفاسدة وهو رأي عقيم لأنه يجعل المدرسة ملجأ الطبائع الفاسد وتقويم المعوج أو يجعلها بؤرة عفنة في نظر الأخبار الصحاح من الطلاب.

وكان هذا الرأي فاشياً إلى حدّ أن آباء الطلبة كانوا يعتقدون أنه ليس للمدرسة حق في طرد أبنائهم منها إلاَّ إذا ارتكبوا أغلاطاً جسيمة أما تومس فكان لا يرى رأيهم وقد كتب العبارة الآتية:

إن أول واجب على كل ناظر مدرسة أن يتخلص من الطبائع العقيمة.

قال يتخلص (to get rid) ولم يقل يطرد أو ينفي ةاستعمل كلمة الطبائع العقيمة (unpromising) تنبيهاً على أنه ليس من الضروري أن يرتكب الطالب هفوة ليبعد عن المدرسة بل يكفي أن يظهر من اختبار غرائزه أن وجوده في المدرسة لا يفيده وقد يضر غيره بالاحتكاك والمخالطة.

ولذلك كان تومس إذا ظهرت له أعراض تلك الطبائع يكتب رجاء إلى والد الطالب أن يسحب ولده من المدرسة والذي يتأمل كلام تومس في هذا المعنى يرى أن ينصح بإخراج رجال نابغين ولو لم يتجاوزوا الأصابع عداً بدل إخراج عدد عديد من المتوسطين من الرجال أو بعبارة أخرى أنه يفضل أقلية عالية ممتازة عن أكثرية منحطة أو متوسطة.

وهذا بعينه هو قانون تنازع البقاء القاضي ببقاء الأصلح أو الأنسب **Natural Selection** الذي كان ينادي به دارون وهو «هوكسلي» في الأنواع الحيوانية والنباتية.

يريد أرنولد أيضاً أن يطبق هذا القانون على التعليم حتى لا يخرج من المدارس إلا النابغون الفضلاء الصالحون للبقاء.

(٣) رأيه في التربية البدنية

كان يقول أن جثمان الأطفال يجب أن يكون مجالا قوياً لثوران غرائزهم وجولان عقولهم وإن التعجيل عليهم بطلب التحصيل وشحن قرائحهم بمسائل العلوم قد يودي بغضاضتهم ويطفئ البادرة فيهم ولم يلاقي الأطفال في حياتهم الأولى وبالا شراً عليهم من سبق عقولهم لأبدانهم وغلبتها عليهم ولذلك كان يحرض على الرياضيات الجسيمة ويغلو في الذهاب بها والتعريف بمكانها فكان وهو ناظر لمدرسة **Laleham** وهي مدرسة خصوصية يرتع ويلعب مع تلاميذه الصغار ويخرج معهم بترامون جميعاً بكرات الثلج ويسبحون في الماء ويتسابقون بالحدف في الزوارق.

وكذلك كان لما عين ناظراً لمدرسة **Rugby** من أكبر همه أن يأَخذ التلاميذ بالرياضة أخذاً ويأمرهم بها أمراً لا يألو جهداً ولا يدخر وسعاً لأنه كان يشعر جيداً بأن كل طفل سيأتي عليه وقت يجتاز فيه لجةً من سورة الشباب وعاصفة من جنون الصبا تثب عليه فيه الغرائز الرديئة والشهوات الحيوانية ولن يصبر لهذه الحملة إلا بنجدة من قوته ومنعة من بدنه.

إن العقل بنموه وتسلط نزعاته وتفرق خواطره يحتاج كالبخار إلى أديم منيع وجسد متين يحمل ضغطته ويقاوم تسلطه. هنا يجب أن أقول إنه عرضت لي أثناء اشتغالي بتنسيق هذه المحاضرة حاجة إلى

التمثل ببيت أبي الطبيب المتنبي:

وإذا كانـــت النفـــوس كبـــاراً تعبـــت في مرادهـــا الأجســـام

كان تومس أرنولد يقول إني أريد أن أجعل من الطفل رجلا من الوجهتين البدنية والخلقية وهو لا يزال في طور الطفولة حتى يصبر لهجوم تلك الغرائز وينتصر عليها لذلك ترى الفتيان الانجليز يبلغون منتهى نمو الجسم وهم في سن الثامنة أو التاسعة عشرة مع أن النمو الطبيعي للجسم لا يتم عادة ألاّ في سن الثلاثين فكان كل هم أرنولد في المدارس الثانوية الاسراع في أن يربي للطفل عضلات قوية وجسما متيناً ليضع فيه نفساً بسيطة جريئة حرة مستقلة معتمدة على ذاتها ومجموع تلك الصفات هو ما كان يسميه بالرجولة الصحيحة (**True Manliness**) وكان يقول أن غرس بذور تلك الصفات في نفوس الأطفال من حداثة سنهم خير من محاولة وضع معلومات علمية في تلك الأدمغة الصغيرة تنسى بسرعة لأنها وضعت فيها قبل الأوان.

والرجل الذي هذه آراؤه في التربية البدنية كان عضواً في جمعية الرياضة البدنية المسيحية وكان الغرض الذي ترمى إليه هذه الجمعية خدمة الجسم وتقويته إِلى أقصى حد مستطاع لا للتباهي بهِ أو استخدامه في قضاء كمآرب شخصية كما كان الحال في الجمعيات الأخرى بل لغرض أَسمى وأرفع وهو حمايةُ الضعيف ونصرة العدل في العالم أجمع وفتح الدنيا ووراثة الأرض ومن عليها وكانوا يقولون: إننا

نريد أن ننصب أنفسنا لخير الإنسانية ابتغاء مرضاة الله فأول ما نفرضه على أنفسنا أن نكون أقوياء السواعد أعزاء الجانب.

ومن وصايا توم براون لإِخوانه:

يأيها الشبان اتقوا الله وسيروا سيراً عنيفاً ولا تتعرضوا للمرض فإن في المرض مضيعةً للوقت والوقت من هب والسير السريع يقوي البدن ويشفي كثيراً من الأمراض.

شكا عَمْر بن معدى كرب المَعَصَ إلى عمر بن الخطاب ﷺ فقال: كذب عليك العسل أي عليك بسرعة المشي والمَعَصُ التواءٌ في عصب الرّجل.

أما آية الانجيل «مُدَّ خدك الأيمن لمن يلطمك على خدك الأيسر» فقد نسختها آية أخرى أصبحت شعاراً للأمة الانجليزية وهي:

فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم وتعلموا الملاكمة فقد تحتاجون إليها يوماً (على أنها الطريقة المستعملة في فض ما عساه ينشأ من الخلاف بين الفتيان الانجليز).

أما المبارزة فاجتنبوها ما استطعتم إلى ذلك سبيلاً ولكن إذا دعيتَ إليها وصدفت عنها لفضل دينك فذاك، أو لأن هذا عمل لا تحب الدخول فيه فمقبول، ولكن حذار أن ترفض النزال محتجاً

بالدين والحقيقة أنك جبان يراع فهذا ليس من الدين ولا من الشرف في شيء.

وإذا وضعت قدمك في الحرب فسر فيها إلى النهاية ولا تدع بلاء إلا أبليته في خصمك ولا حيلة إلاّ احتلت بها له. ولا تقلعن عنه وفيك عرق ينبض ونفس يتردد.

ولقد أراد تومس أرنولد برأيه في التربية البدنية وإثارة الناس إلى العمل بمذهبه فيها أن ينتشل الأمة الانجليزية من حال سيئة كانوا عليها إذ كانوا إلى سنة ١٨٢٠ منهومين بالطعام والشراب مسرفين في الإخلاد إلى الراحة والسكينة سماناً غلاظاً عرضة للسكتات القلبية، والرسوم والتاريخ أعدل شاهد.

ظلت أفكار تومس تختمر في رؤوس الانجليز رويداً حتى هبوا من سباتهم وأفاقوا من رقدتهم وما جاءَت سنة ١٨٦٠ حتى دانوا بالتربية البدنية وأُغرِموا بحب الألعاب والرياضات واشتدوا في ذلك اشتداداً لم يسبق له مثيل إذ آنَسوا من فرنسا يومئذٍ أهبة واستعداداً ظنوا معها أن الحرب بينهما واقعة لا محالة.

فقام هربرت سبنسر ووضع قدمه في الميدان. وجهر بأعلى صوتهِ أنهُ يجب على الإنسان أن يكون حيواناً قوياً إذا شاء أن يكون حليف النجاح في هذه الحياة. وأن الأمة التي تريد أن تتبرأ مقعد صدق بين الأمم الراقية يجب أن تتألف من رجال كالحيوان أو أشد

منهُ قوة. وأن الاحتفاظ بالعافية. والحرص على السلامة من العلة فريضة محتمة وقضية مسلمة. وما هو إلا ذاك حتى سار على أثره العلماء والحكماء والأطباء والفلاسفة ضاربين على هذه النغمة. قائلين بهذه السنة. ناصحين للجميع باعتناق الرياضة البدنية، والعناية بالصحة، والأخذ بأسباب القوة من الحداثة إلى الكهولة، وفي الحلّ والرّحلة وفي كل مكان، ولكل أحد. وقد قال الدكتور كليمان ديوكس إن قوة الأمم واقتدار أفرادها على العمل يتوقفان على صحة أبدانهم. واطراد تمرينهم على الرياضات الجسمية. ومراس الأعمال البدنية. فثارت الأمة بأسرها وفي طليعتها طلبة المدارس والجامعات والأعيان. وانشئت الحمامات في البيوت والمدارس والأسواق العامة واخْتطّتْ حقول واسعة ملاعب للتنس والكريكت. وغطى سطح البحر بزوارق السباق وملئت الشوارِع بفرق الكشافة والمتطوعين ووطد كل النفس على العمل على تربية عضلاته والفرار من السِّمَن فراره من الموت ومحاربته محاربة الوباء. وقد جعلوا هذه الألعاب الرياضية كمدارس منظمة يتعلم فيها الأطفال الرزانة والثبات. والنظر الصحيح إلى الأشياء. وقوة الحكم عليها. وتُقَوّم سجية الاحترام فيهم. وإن في طاعتهم لرئيسهم (الكابتن) عن خِيَرَةٍ من أمرهم. ورغبة من أنفسهم لدليلاً على تقديرهم السلطانَ الخوَّل للأقوى. والرياسة الممنوحة للأكثر تجربة وخبرة. وتكون تلك الألعاب في الهواء الطلق. في مجالي الطبيعة. في الأغوار والانجاد بين الأنهار المطردة.

والأطيار المغردة. وبذلك الجهد البدني القوي يظهر الجسد من السموم المتخلفة من الحياة الجلوسية. ويصلح الدم الذي أفسده هواء المدينة. أضف إلى هذا أنها محت من طباعهم كل ميل إلى الإسراف في الأكل والشرب، ولا صحة مطلقاً لما قد يتوهم البعض من أنهم يأكلون أكثر من غيرهم فان ما يأكله الانكليزي في اليوم على دفعات يأكله المبطنون منا في دفعة واحدة.

سأل عبد الملك بن مروان أبا المغور هلا اتخمت قط قال لا قال فكيف ذلك قال لأننا إذا طبخنا أنضجنا وإذا مضغنا دققنا ولا نكظ المعدة ولا نخليها.

تلك هي الفضائل التي يجنيها الانجليزي من الألعاب يتعوَّدها في المدرسة من صباه. وتلازمه لِزام الظل مدى الحياة. وأثر هذه الألعاب في الأخلاق على النمط السابق ظاهر لا ينكر. قال به جميع المربين الانجليز بلا استثناء. وتواصوا به، وأغروا الناس باتباعه، حتى سرى حب هذه الألعاب في دمائهم. وتمكن من نفوسهم لا يثنون صدورهم عنها من كِبْرة ولا يذرونها من عمى.

وهذا مستر فوست **Fawcett** في أخرياته قد ذهبت عيناه وكان مع ذلك يتزلج ويركب الخيل. وأنتوني ترولوب وقد لوت الشيخوخة من عوده كان يحضر جواده ليصطاد الثعالب. ويعرف كل انجليزي ما كان من أمر بلمرستون وكلفه بالذهاب إلى ميدان سباق بسوم

(Epsom) إذ كانوا يرفعونه إلى ظهر فرسه بجهد وتعب. فإذا استوى عليه نسي شيخوخته وملك عِنانه. وأمِن حرانه.

إذا أنا أطنبت في الرياضة البدنية واهتمام الانجليز بها ذلك الاهتمام وإعظامهم إياها ذلك الإعظام وأخذهم بها من المهد إلى اللحد فلقد كانت من أهم العوامل في نهوضهم وتطورهم ذلك التطور الذي أدهش العالم بأسره.

قال مسيو Pierre de Coubertin: «ما كان الانجليز من مائة سنة خلت بل ولا من ستين على نراهم عليه الآن من شدة تمسكهم بعاداتهم ونشاطهم في الخارج وسهولة انقيادهم إلى حكامهم وتفانيهم في حب وطنهم».

ولكنهم هبّوا من رقدتهم ونشطوا من عقالهم وقطعوا كل صلة بالماضي وبنَوا لأنفسهم ذلك البناء الشامخ وهذا المجد الطريف الذي لم يشهد العالم مثله ولا ريب عندي في أن للتربية الصحية المؤسسة على الرياضة البدنية إلى أقصى حد مستطاع وللحرية الحقيقية التام دخلاً كبيراً في هذا الانقلاب العجيب».

ذلك وأما الفرنسيون فكانوا يسخرون من هذه الرياضيات الجسمية. ويعتقدون أن العناية بانماء جسوم الأطفال وتعهد الأبدان بالتقوية مفسدة للأطفال أي مفسدة إذ يقولون إن المادة هي مَعين الشر وعتَاد الفساد. وأن صفاء البصيرة وبلوغ الأرواح درجاتها من

الكمال إنما يكون باهمال الجسم وكسر شرته. وإِضعاف حيوانيته وقد غلا بسكال أحد فلاسفتهم في مذهب المتصوفة إلى حد أنه كان يلبس شعاراً من شعر خشن كرءوس الأبر على جلده خيفة أن يخدعه الترف أو تلهيه الراحة. وأكثر من ذلك أنه كان يشد على وسطه نطاقاً من مسامير دقيقة خيفة أن يشعر بلذة التوفيق إلى استنباط حل قضية من الهندسة وكان بها مولعاً. وعليها مكباً فكان مذهبهم في قول القائل.

أقبل على النفس واستكمل فضائلها   فأنـت بالـنفس لا بالجسـم إنسـان

ولم يُقلع الفرنسيون عن احتقار الرياضة البدنية والزراية على من كان يحبها من التلاميذ إلا من عهد غير بعيد.

مذهبة في التربية

لندع الآن ضرب الأمثلة. وسرد الحوادث المختلفة. إلى البحث في الخطة العامة التي جعلها تومس أرنولد أساساً لمذهبه في التربية فنقول:

كانت المدرسة في نظر ذلك المربي العالم كدار كبيرة من دور القضاء يتدافع فيها سيلان من القوة الهادية إلى الخير الصادرة عن قضاة هذه الحكومة وهم الناظر والمدرسون ومن المقاوَمة العشواء من التلاميذ الذين أدون على الإنابة إلى القانون والمضي في سواء السبيل. وكانت الحكمة والحيطة والبلاء الحسن الذي يبذله أولئك

المدرسون هي القوة التي يجب أن تكون لها الغلبة لتحسن الحال. وتلين شكيمة الأطفال. ومن أجل ذلك كان من الكياسة منح نصيب صالح من هذه القوة للجهة التي تنشأ منها المقاومة بتسليط عدة من زعمائها وإمكانهم بقدَر من الحكم تأليفاً لهم واستظهاراً بهم على من عداهم من الأطفال.

وذلك بعينه هو أحد مظاهر المبدأ الانجليزي العام الذي يمكن تصويره في مثل آخر. وهو أنهُ لضمان النجاح في تقرير حال على ما هي عليه. أو المحافظة على سلامة نظام قائم في نفسه. لا بد من إغراء الناس بع وحملهم عليهِ وتزيينه في أعينهم حتى يكون فتنةً لهم ويكونوا هم حماة له. وشيعةً على المتنكبين عنه وقد كان الرجاء في تطبيق مبدأ اجتماعي كهذا على جماعة من الأطفال غير كبير لما لا يخفي على الذين مارسوا التعليم وخبروا غرائز الأطفال وسبروا خفّة أحلام الشباب. غير أن تومس أرنولد لم يُحجم لحظة عن العمل بذلك المبدأ في مدرسته. وهي جُراءة لم يُقدم عليها إلاَّ من عظمت ثِقَتُه بعلمهِ وعمله وقوىَ اعتماده على نفسها ومقدِرته. وقد نجح تومس في ذلك نجاحاً باهراً فوضع الثقة في المدرسين والمتقدمين من التلاميذ في الفرقة السادسة وإقامة المدرسين أَوصياء على التلاميذ وعهد إلى كل واحد منهم مراقبة زمرة من التلاميذ الخارجية. ورياسة بيت من بيوت الداخلية الملحقة بالمدرسة (Boarding Houses) لا تكاد عدتهم تجاوز الثلاثين. يسكنون معه في داره ويأكلون على مائدته

ويظلون في وصايته سبعَ سنين يدرس فيها طباعهم. ويسبر غور خواطرهم فيرشد عقولهم إلى الصواب ويَهدي قلوبهم إلى الخير. حتى يصل بهم إلى أقصى ما يستطاع من الرقي والكمال. وقد كان التلاميذ الداخلية من قبل في عُهدة أناس مُقاوَلين ليسوا من أمور التربية في شيء فوضعوا الكسب المادي نصب أعينهم وتركوا حبل التلاميذ على غاربهم فيما هو من التهذيب والتعليم حتى ساءت الحال واضطرب النظام وانحط مستوى الأخلاق وقد خول تومس تلاميذ الفرقة السادسة سلطة تامة على تلاميذ الفرق الأخرة وعينهم معيدين ومن أفضل عملهم مساعدة المدرسة على حفظ النظام وتوصيل المبادئ القويمة إلى إخوانهم لأنهُ لم يكن يرى رأي معاصريه في ترك الأطفال يستقلون بأمورهم إِلى حدّ أنهم يواجهون الحوادث بأنفسهم ويتصرفون فيها وحدهم خفية أن تفسُدَ مبادئُهُمْ وتَهجُن عاداتهم وهم في هذه السن قلما يميزون بين النافع والضار والحسن والقبيح ولذلك جعل المتقدمين منهم وسطاء بينهم وبين المدرسين ينقلون إليهم التعاليم الصحيحة وينشرون فيهم المبادئ العالية ويحببون إليهم الأخلاق الفاضلة ويكونون هم البادئين بالعمل بها والقائلين لإخوانهم هلَّم إلى تقليدنا والنسج على منوالنا.

كان تومس يقول إن مثل هؤلاء المساعدين كمثل ضباط الجيوش البرية والبحرية إذا وثقتُ منهم فليس في انكلترا وظيفة أوثرها على وظيفتي وإذا لم أثق بمعونتهم فالاستقالة محتمة. ويخيل لي

وأنا أنقل هذا عنه أني أمام رئيس حكومة يتكلم عم وزرائه وكذلك كان تومس يكثر الاجتماع بهم ويدعوهم إلى شرب الشاي معه يخوض في الحديث معهم ويحاسبهم على الفعلة من أفعالهم والكلمة تخرج من أفواههم. فكانت هذه الاجتماعات مدرسة ثانية للتفكير في الحياة والاستقلال في الرأي والتقدير للعاقبة مع احترام المبادئ المرسومة والقواعد المقررة. وكان الغرض الذي يرمي إليه تومس من وراء ذلك هو تعويد التلاميذ حكمَ أنفسهم من حداثة أسنانهم على قواعد العدل والتروي والحكمة،لأنهم بعد المدرسة سيقلدون المناصب ويتسلمون زمام الأحكام إذ كانوا من أبناء العِلْية وأهل الولاية.

وكان لهم عدا ذلك اجتماعات أخرى في المدرسة يمرنون فيها على الخطابة والخوض في فنون شتى من القول على ما يتراءى لهم من سياسة ومن أدب وتايخ وإذا كانت الخطابة في شأن سياسي أخذ الاجتماع صورة مجلس نيابي صغير تجرى المناقشة فيه على التقاليد والرسوم النيابية ويتنادون فيها بينهم بنائب مقاطعة كذا وحضرة العضو المحترم كما يفعل النواب الكبار والوزراء يجعلون ذلك ذريعة لدراسة بلادهم ومعرفة مواقع أملاكهم. فقد كان المتكلم منهم على اقليم مَا يجب عليه أن يلم إلماماً بأحوال ذلك الأقليم تجارية كانت أو اقتصادية أو صناعية أو زراعية أو غيرها. وكان الوزراء منهم يجلسون أمام المعارضين الذين كثيراً ما كانوا يسقطونهم وكان رئيس الوزراء هو الذي يفتح المجلس وهو الذي يعلن انفضاضه.

حدَّث مسيو دي هبنز (M. de Hubner) النمسوي أن حرية المناقشة في تلك المجالس كانت بالغة غايتها حتى في غير انجلترا من البلاد التابعة لها. قال دخلت مرة إحدى الكليات الهندية والطلاب يتناقشون في حفلة من هذه الحفلات في موضوع غريب وهو: أليس الأفضل للهند أن تتخلص من النير الانجليزي وكان المشرفون عليهم من الأساتذة الانجليز ومع ذلك لم يقم منهم من ينكر ذلك القول

يقول دي كوبرتين الفرنسي إننا معشر الفرنسيين لا نستطيع أن نسمح لطلابنا بمثل هذه الحرية لأن اختلاف الرأي عندنا يؤَدي إلى شحناء قد تسوء عاقبتها أما عند الانجليز فمجالس الخطابات بينهم هي بساط يطوي بما فيه. ولقد يكون الرجل من حزب وابنه من حزب معارض له وليس لهذا الخلاف أقل أثر في رابطة الأسرة التي بينهما.

وأنّي لأرى أَنَّ تفوّق الانكليزيّ في هذا المضمار يرجع الفضل فيه إلى كثرة المِرانة وطول المِراس فقد أحذوا أنفسهم بحرّية المناقشة منذ نعومة أظفارهم فصارت لهم عادة راسخة في كلّ أطوار حياتهم وصارت صدورهم رحبة لقبولها بدون أن تؤَثّر فيها أو تنال منها فلقد يتّسع مجال الجدال بين اثنين منهم يتباعد آراؤهما ويختلف مذاهبها فلا تجد من كلا المتناظرين إلاّ صدراً فسيحاً وأناة طويلة وقَبولاً لكل ما يتحرّك به لسان صاحبه.

أين نحن من كلا الفريقين في حرية المناقشة؟

إذا أحسنَّا الظّنّ بأنفسنا قلنا إننا كالفرنسيّن في هذا الموضوع ولكن لا نكذب الحقيقة إذا قلنا إنَنا أشدَ منهم تطرفاً في تقييد المناقشة وأشيق مجالاً لقبول صراحتها وإطلاق العنان لحرّيّة الرأي فيها، فانك لتجد المناظرة بيننا مطوّقة بأغلال المجاملة أعناقُها، مغلولةٌ بقيود الاحتراس أيديها، فإن يداً لأحد المتناظرين أو لكليهما أن يفكّا عنهما رِبْقَةَ تلك المجاملة ويُطلقا أنفسهما من قيود كتان الرأي الصريح والإفضاء بالفكر الحر فقلما تنتهي مناقشتهُما بسلام وما ذاك إلاَّ أننا لم نعوّد أنفسنَا الصراحة الكاشفةَ في المجادلة، ولم نأخذها بالتمكّن من معرفة أساليب المناقشة وآداب البحث والمناظرة.

وجدير بمن يريدون أن يتبوؤوا مراكز الرياسة ويضعوا أنفسهم من الناس موضع الزَّعامة أن تتّسع صدورهم للمناقشة وتطيب نفوسهم لسماع الانتقاد والإصغاء إلى ما قد يخالف آراءهم ليَسْتَشِفُّوا بواطنَ الصدور ويخترقوا حُجُب الضمّائر ويقفوا على ما تنطوي عليه قلوب النَّاس من مختلف الآراء وشتّى المذاهب، ويعرفوا أنّ الألسنة ترجمان الأفئدة فلا ينبغي أن يعقلوها، وأنّ الصدور هي مقرَ الحرية فلا يضيَّقوا ما فسحه الله منها، فإذا نحن أغلقنا صدورنا دون قبول ما تأتي به حرّيّة المناقشة جنينا على الحرّيّة جناية لا غفران لها.

ولقد كان لنا في خِيْرة سلفنا أُسْوة حسنة وقُدْوة صالحة لمن كان يريد سَعة الصدر واطلاقَ حرّيّة الفكر ورياضَة النفس على إذعانها

لذلك، وأن بين دَفّات كتب التاريخ والآداب العربيّة لأمثلة راقية لما كان يصدر عن الخلفاء والملوك وقادة الأمّة من حلم لا تُحَلّ حَبْوَتُه، وأناةٍ لا تخشى بادرتها، فانطلقت الألسنة من العقال ونطقت بما شاءَت من المقال وانتصرت الحرّيّة الفكريّة وانتشرت الشجاعة الأدبية، فلقد كان لهؤلاء السادة نضر الله وجوههم مقامات حسان وأنديةٌ ينتابها القول والفعل ومجالس يشْفَى بأحلامها الجهل يسمعون بها العظات ممّن لا يُؤْبَهُ له وتُصْغى أسماعهم إلى مرّ الانتقاد وشديد الجدال ممن قد يكون ضعيف المُنّة ليس له من الأمر شيء. ولقد كان من هؤلاء الملوك من لو شاء لبرى الرقاب وأطار الهامات عن الأعناق بكلمة تلفظها شفتاه فيجرى بها قلم القضاء ولكنهم كانوا أرحبَ صدراً وأرقى فكراً أن يدفنوا الآراء في الصدور وأن يئدوا حرّية المناقشة وهم مطالبون باستحيائها.

وممَّا يؤثر عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنهُ في رياضته نفسه وكبحِه جماحها أنه نادى: الصلاة جامعة. ثم صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال: أيها الناس لقد رأيتُموني أرعى غنماً لخالات لي فكنّ يقبضن لي القبضة من المّر فأظلَ اليوم وأيَّ يوم. فقال له عبد الرحمن بن عوف: والله يا أمير المؤمنين ما زِدْتَ على أن قصرت بنفسك. فقال: ويحك يا بن عوف، أني خلوت فحدثني نفسي فقالت: أنت أمير المؤمنين فمن ذا أفضل منك فأردت أن أعرفها قدرها.

أما أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان فقد ضربت بحلمه الأمثال ولهجت بحسن سياسته الألسنة ولقد أحاطت به مدَّةَ خلافته أحوالٌ وحوادث لولا حسن دهائه وسياسته وطول أناته وحلمه لما أتيح له أن يبقى زعيمَ أمةَ يعلم أن فيها من لا تقر عينه بخلافته ولقد حذا حذوه في ذلك كثير ممن خلفه من بني أميّة وبني العبَّاس أخذوا بيد الحقّ وشدوا أزره وقاموا بنصرة المجادلة والبقاء على حرّية المناقشة غيرَ مفتونين برأيهم ولا راكبين لهواهم رءوسهم، فرأي الناس في أيامهم مجال القول ذا سعة فقالوا، وميدانَ حرّيّة الآراء فسيحاً فجالوا، فما كتموا عظة ولا أغضوا العين على قذي فأفادوا واستفادوا.

خرج الزُّهريُّ من عند هشام بن عبد الملك فقال: ما رأيت كاليوم ولا سمعت كأربع كلمات تكلَّم بهنّ رجل عند هشام دخل عليه فقال. يا أمير المؤمنين احفظ عنّي أربع كلمات فيهنّ صلاح ملكك واستقامة رعيَّتك، قال ما هنَّ: قال لا تَعد عدة لا تثق من نفسك بإنجازها، ولا يغرّنّك المرتقى وإن كان سهلاً إذا كان المنحدر وعرا، واعلم أنَّ للأعمال جزاءً فاتّق العواقب، وأنَّ للأمور بغتاتٍ فكن على حذر. قال عيسى بن دَأب فحدّثت بهذا الحديث الخليفة المهديّ وفي يده لقمة قد رفعها إلى فيه فأمسكها وقال ويحك! أعد عليّ، فقلت: يا أمير المؤمنين أسغ لقمتك فقال: حديثك أشهى إليَّ.

فحقّ لنا نقتدي بهؤلاء وأمثالهم ممّن أيدّوا حرّية المناقشة

وبسطوا ألسنة الناس في صراحة القول والمباحثة أولئك الذين يستمعون القول فيتّبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك أولوا الألباب. ولعمر الحق إن ذلك منهم لدليل على عقل راجح وعلم غزير فان تأمر لا يفسح صدره لسماع رأي غيره إلاّ إِذا هذب العلم نفسه ولطف من طباعه.

وما أحكم الفيلسوف الفرنسي مونتين (**Montaigne**) في قوله «إن مصل الناس في ازدياد تزاضعهم ولين جانبهم كلما ازداد علمهم مثلُ سنابل تظهر في أول أمرها وهي خِلوٌ من الحب شامخة متعالية حتى إذا امتلأ جوفها وتم نُضْجها أحدودبت سيقانها وانحنت رءوسها».

وكان تومس يقوّم التلاميذ بالتقريب والملاينة، يحترم رأيهم وكلامهم، ولم يشك في قول صغير ولا كبير منهم كي لا يثلِم كرامته أو يكْسِر شِرَّته. ولم يعوز أحداَ إلى حجة على قول أو شاهد على عمل فعنده قولهم صدق وعملهم حق ورأيهم محترم، وكِفاء هذه الثقة كان لا يطلب منهم إلاّ الصراحة في القول واحترام الحق. وتقديس الحقيقة. وقد شاع في المدرسة كلها وطار في أنحاء المدينة أن أكبر جرم يقترفه التلميذ في رجبي (**Rugby**) هو الكذب على أرنولد وجزاء من يفعل ذلك أن يفصل أبداً عن المدرسة وقد نقش تومس في أذهان الأجيال التي رباها شناعة الكذب وقبحه نقشاً لا يمحوه كر الغداة ولا مر العشى. وقد سرة مبدؤه هذا وهو (ابتياع الصدق بالثقة) على

سهولته سريان الكهرباء في السلك. فهم الأسر والأندية. وأسلم له الانجليز في كل مكان وآمنوا بأنه أنجع دواء لاستئصال الكذب من النفوس. فأقبلوا على أولادهم من نعومة أظفارهم يغرسون في قلوبهم حب الحق واحترام الحقيقة حتى امتزجت الصراحة بدمائهم وسرى الصدق في عروقهم. وإن أعظم سَوْءَةٍ يُراعُ لها الانجليزي ويقشعر منها بدنه لهي وصفك إياه بالكذب «**Liar**» ولا غرابة في عِيافِ الثوم مَعَرَّةَ الكذب وغسلهم أنفسهم من دنسه فهو يودي بحياة الأمم كما يودي بحياة الأفراد.

وهذه آثار سلفنا الصالح تفيض بالبراءَة من ذلك الخلق (الكذب). والتَّمدح بالصدق والصراحة والمباهاة بهما والتعلق بأسبابها، فهذا دُريد بن الصّمة على جاهليته في مرثيته المشهورة لأخيه عبد الله يُعزي نفسه عنه بقوله:

وهــوَّنَ وجــدى أنــني لم أقــل لــه كـذبتَ ولم أبخل بما ملكـت يـدى

وتلك أحاديث الخلفاء وأخبار الوفود ومقامات الأعراب بين أيدي الملوك تنطق بحكمة ألسنتهم والصدق في قولهم وفعلهم والصراحة البالغة في حديثهم.

روى أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب قال لعبدالله بن عباس رضي الله عنهما من ترى أن نوليه حمص. فقال رجلاً صحيحاً منك صحيحاً لك. قال تكون أنت ذلك الرجل قال لا تنتفعُ بي مع سوء

ظني بك وسوء ظنك بي. هذه صراحة رجل واليكم صراحة امرأة.

حج معاوية بعد عام الجماعة فسأل عن امرأة من بني كنانة كانت تنزل بالحجون يقال لها الدارِميَّة الحجونية فأخبر بسلامتها فبعث إليها فلما جاءت قال أتدرين لم بعثت إليكِ؟ قالت لا يعلم الغيب إلاَّ الله. قال بعثت إليك لأسألك علامَ أحببت علياً وأبغضتني وواليتهِ وعاديتني. قالت أو تُعفيني قال لا أعفيك. قالت أَمّا إذ أبيت فاني أحببت علياً على عدله في الرعية وقَسمه بالسوية وأبغضتكَ على قتال من هو أولى منك بالأمر، وطِلبتِك ما ليس لك بحق، وواليتُ علياً على ما عقد له رسول الله من الولاء وحبَّه المساكين واعظامه لأهل الدين. وعاديتُك على سفك الدماء وجورِك في القضا وحكمك بالهوى. قال هل رأيتِ عليًا. قالت إِى والله فكيف رأيته قالت رأيته والله لم يفتنه الملك الذي فتنك. ولم تشغله النعمة التي شغلتك قال فهل لك من حاجة. قالت أوَ تفعل إذا سألتك. قال نعم. قالت تعطيني مائة ناقة حمراء فيها فحلها وراعيها. قال تصنعين بها ماذا. قالت أغذو بألبانها الصغار، واستحي بها الكبار واكتسب بها المكارم وأُصلح بها بين العشائر، قال فإن أعطيتم ذلك فعل أحِلّ عندك محلّ علي بن أبي طالب قالت سبحان الله أوَ دونه فأنشأ معاوية يقول:

إذا لم أعــدُ بالحلــم مــني علــيكم　　　فمن ذا الذي بعدي يؤمل للحلم

خذيها هنيئاً واذكري فعل ماجد جزاكِ على حرب العداوة بالسلم

ثم قال أما والله لو كان على حيًّا ما أعطاكِ منها شيئاً قالت لا والله ولا وبرة واحدة من مال المسلمين.

ذاك حديث امرأة تساق إليها الدنيا عفواً ويكال لها المال كيلاً لتنزل عن رأيها أو تغير اعتقادها فلم تفعل. والشواهد أكثر من أن تذكر على ما كان لهذا السلف الصالح من علو النفس وكرم الأخلاق والتمسك بالمباديء والدفاع عن الحق والنفرة الشديدة من التَّملق للقوة وما منا إلاَّ من يعرف ذلك ولكن ليس في معرفة الفضائل كفاية بل الكفاية أن يعمل بها إلى النهاية.

شكوتُ وما الشكوى لمثلي عادة ولكن تفيض الكأس عند امتلائها

تلك هي كلمتنا عن التربية في انجلترا والدعائم الكبرى التي يقوم عليها صرحها وقد رأينا أن نشفعها بكلمة عن التربية في أمريكا لما بينهما من تشابه في الطريقة واتحاد في الوجهة.

المحاضرة الثالثة

التربية في امريكا

تمهيد

حضرة صاحب المعالي وزير المعارف– سيداتي وسادتي أبدأ بتقديم الشكر الجزيل لحضراتكم لتلبيتكم دعوة النقابة وتفضلكم بالحضور لاستماع محاضراتها ففي ذلك دليل ظاهر على عطفكم ومعاونتكم لها على المضي فيها اختطته لنفسها من القيام على حركة التربية والتعليم في البلاد لعلمكم أن ليس للأمة أن ترقى حتى تسلك هذا السبيل وأن مصر الفتية الناهضة لا بد لها أن تسير إلى الأمام وأن تحتذي في سيرها مثال الأمم الراقية التي تصل إلى ما وصلت إليه من عظمة ومنعة ،إلا بعد أن بذلك جهوداً وتجشمت صعاباً وذاقت آلاماً تنوء بها الجبال.

أما الأمم التي لم تمر طويلا على عرام الدهر ولم تألف مقاومة الصعاب وتذليلها فسريعة العطب والفناء لأن عدم استكمال تربيتها في ميدان الجهاد والمقازمة يجعلها عاجزة عن دفع عوادي الأيام وطوارئ الحدثان.

وما حياة الأفراد والأمم إلا جهاد دائم. لذلك كان حقاً على المدرسة أن تهيئ النابتة لهذه الحياة وأن تُعدَّهم بالأساليب الحكيمة لكي يضعوا قدمهم ثابتة في المعترك ولكي يصبروا ويتجلدوا ويقاوموا حتى يغلبوا ويفوزوا.

فكل تربية لا ترمي إلى هذه الغاية السامية هي والعدم سواء لأنها لا تطابق طبيعة الوجود في شيء وكذلك كل تعليم لا يمد النشء بوسائل الكفاح في ميدان الحياة العملية الحقة إنما هو تعليم عقيم لا خير فيه.

أن نقابة المعلمين بمثابرتها على إلقاء المحاضرات وعقد المؤتمرات في شئون التربية إنما تؤدي واجباً عليها نحو العلم الذي هي أمينة عليه ورافعة رايته باليمين إذ تفتح للإصلاح العام باباً وتمهد للرقي طريقاً وهي بأذن الله ماضية في هذا السبيل بفضل اتحاد أبنائها وبفضل تضامنهم ونشاطهم وغيرتهم على المصلحة العملية تخدمها في غرضها النبيل صحيفتها التي تنم عن حسن سعيهم وتنشر مباحثهم على الناس.

وبعد فقد كنت يوماً أجيل النظر في الكتب الجديدة بأحدي المكتبات العامة فلفتني عنوان ضخم لكتاب «روح التربية» وما كان هذا العنوان ليستهويني وحده إلى اقتنائه لولا أني أبصرت اسم مؤلفه الكاتب الجهبذ جوستاف لبون الذي نوه كما تعلمون بحضارة العرب

وشاد بذكرهم في كتابه الذائع الصيت «تاريخ حضارة العرب» والذي ترجم له المرحوم فتحي باشا زغلول كتاب روح الاجتماع.

أما السفر الذي نحن بصدده اليوم فتمتاز الطبعة الأخيرة منه بفضل ممتع في طرق التربية والتعليم في أمريكا نقله عن كتاب مسيو بويز ناظر مدرسة شارل روا من أعمال بلجيكا الذي ساح في أمريكا أخيراً وشرح طرق التربية والتعليم فيها شرحاً كان له أعظم وقع في نفوس الأمم الأوربية جميعاً.

والذي يتصفح هذا الكتاب بتبين منه البون الشاسع بين حضارة أوربا وحضارة أمريكا وقبل أن يشرح جوستاف لبون تلك الطرق انحى باللائمة في الباب الأول من كتابه على تعليم الجامعات في فرنسا لأنه مبني كله على استظهار الكتب دون أن يكون للتأمل والتفكير والبحث والتنقيب أثر فيه.

أما أساتذة الامريكان فقد نجحوا بأساليبهم الحكيمة في بث روح الملاحظة في النشء من بدء حياتهم وفي تنمية قوة الحكم ودقة التصور وصقل أخلاقهم صقلا متيناً جون أن يكون للكتب في كل ذلك شأن يذكر. ثم يقول: «نعن إن في جامعات فرنسا فئة من نوابغ الطلاب حرروا عقولهم في قيود التعليم العقيم في تلك الجامعات وكوّنوا أنفسهم بأنفسهم وبفضل جهودهم وحدهم بقيت فرنسا إلى اليوم متبوئه مكانة علمية بين الأمم ولكن السواد الأعظم من

الطلاب لا يزالون يرسفون في السلاسل والأغلال التي قيدتهم بها الجامعة وسيظلون حياتهم متمسكين بتعاليم أساتذتهم القديمة عاجزين كل العجز عن الخروج عليها أو الانحراف عنها مع أنهم هم الذين تقوم عليهم حضارة الأمة وكان أول واجب على الجامعات أن توجه كل عنايتها إلى توسيع معلوماتهم وترقية مداركهم لأنهم عصب الأمة وملاك حضارتها فكيف ترقى فرنسا إذا ظلت تلك الطبقة الوسطى منها في أسر الجامعة لا تجد من يفك عنها الاغلال وينير لها السبيل».

ولقد بلغ من تفشى تلك الطرق العقيمة في التربية والتعليم في فرنسا أن مدرسة من أرقى مدارسها وهي مدرسة الهندسة (سنترال) التي ينبغي أن تكون أبعد المدارس عن الحفظ والتسميع يقنع طلابها من التعليم باستظهار العلوم كلها حتى الرياضيات منها ولكنها لا تلبث أن تزول من عقولهم إذا فرغوا من الامتحان لأنها لم تصل إلى أذهانهم إلا من طريق الحافظة.

وهذا المسيو بلتان الذي تربى في هذه المدرسة وهو الآن يشغل وظيفة مفتش بمصلحة المعادن يقول لنا: «إن التعليم الذي لا وجهة له إلا أداء الامتحان يفقد كل ميزة علمية ولا ينمي إلا قوة الحافظة ولما كان طالب الهندسة في بلادنا لا عمل له إلا أن يحفظ دروسه من الكتب دون أن يكلف عملا شخصياً يستلزم البحث والتنقيب

والابتكار فليس هناك إذن مقياس صحيح نعتمد عليه في تقدير قيمته العلمية».

ولهذا نرى المتفوقين في الامتحانات غالباً هم أمضى الطلبة حفظاً وأوعاهم ذكراً وأن كانوا أضعفهم تصوراً وذكاء ومنهم تختار الحكومة موظفيها لسبقهم في حلبة الامتحانات وعلى ذلك فالحكومة في اختيارها الرجال لوظائفها لا تعتمد على صفوة أبنائها من حيث مواهب الفطنة والذكاء.

ولقد وقع في السنوات الأخيرة حادث ببلاد الهند أثبت للإنجليز خطأهم في التعويل على الامتحانات. ذلك أن الجرائد الوطنية تذمرت من طريقة تعيين الموظفين للخدمة الإدارية العليا (civil service) واقترحت أن يكون انتخابهم بالامتحان فقبل الانجليز هذا الرأي فكانت النتيجة أن فاز لبمبو من أهالي البنغال على الأوربيين في الامتحانات نظراً لما اشتهروا به من قوة الحافظة وسرعة الاستظهار غير أنهم ما لبثوا حتى تولوا الحكم أن تجلى فيهم نقص كبير في الأخلاق وسوء تصرف في الإدارة العامة كادا يقودان الهند إلى الخراب لولا أن الانجليز بادروا بالعدول عن هذه الطريقة إلى أسلوب آخر يحرم لبمبو الاستفادة من هذه الميزة الطبيعية بعد أن ثبت لهم أن الامتحانات عاجزة عن كشف المخبوء من أخلاق الممتحنين وذكائهم وإن استظهار الكتب وحده لا يؤدي إلى سداد

الرأي وبعد النظر في الأمور ولا يطبع في النفوس عاطفة العدل والأنصاف.

والحقيقة الناصعة أن الوظائف الإدارية الكبرى لا تتطلب نبوغاً كبيراً في العلم ولكنها تتطلب أولاً وقبل كل شيء أخلاقاً متينة كالعدل والقدرة على ضبط النفس في جميع المواطن.

يقول جوستاف لبون أنه حدث له في أثناء زيارته للهند أن تعرف بموظف انجليزي كبير كان كثيراً ما يخرج وحده ليلاً إلى الغابات الشاسعة لاصطياد النمور فسأله عن سبب ذلك فقال له إنه كثيراً ما يشعر بضعف في عزيمته وعجز عن مقاومة نفسه والتغلب عليها فلم يجد علاجاً يعودها الصبر والأناة ورباطة الجأش في أدق المواطن وأحرج المراكز خيراً من أن يقضي الساعات بل الليالي يرتقب مرور النمر ليقتله عالماً تمام العلم أنه إذا أخطأ المرمى ولم يصبه في مقتله مدة ثلاث الثواني التي يمر فيها فهو هالك لا محالة.

والتاريخ شاهد عدل على أن الأُمم العظيمة لم تقم إلا بالأخلاق القوية وصفات الرجولة الحقة كالتنبه والتفكر والرأي والابتكار والنظام والتضامن والثبات والإرادة تلك هي الصفات الخلقية التي يجب على المربين أن يبثوها في النشء وينموها على الدوام ولن يصلوا إلى هذه الغاية إلا أن يكثروا من وضع التلاميذ في المواطن والظروف التي تحتم عليهم إعمال الفكر والروية قبل الإقدام

على اتخاذ قرار حاسم في موضوع من الموضوعات وإن يجبروهم بعد أن صحت عزيمتهم على التنفيذ أن يمضوا فيه إلى النهاية.

عزم الشاعر الانكليزي «وردزورث» مرة على تسلق جبل للتنزه والرياضة وبينما هو يصمد إذ هبت عاصفة شديدة فاستمر في الصعود على الرغم من قصف الريح وهو يخاطب نفسه بقوله: «إن العدول عن مشروع قام في سبيله خطر صغير لهو خطر على الأخلاق كبير» فالمثابرة والإرادة هما من أقوم الأخلاق التي تمتاز بها أفراد الأمم الراقية.

نعود إلى الكلام على العلم المدون في الكتب ذلك العلم الذي ينعاه جوستاف لوبون على الجامعة. يتساءل ما العمل لتلافي ذلك الخطر الداهم ونحن من ثلاثين عاماً نرى الناس تضج من عيوب هذا التعليم وآثاره السيئة في البلاد وهؤلاء رجال الجامعة هم أسبق من يعترف بهذه الحقيقة المؤلمة ولكنهم كلما أرادوا مداواة العلة لا يتوجهون إلا إلى المناهج وتنقيحها والحال أن الداء الوبيل كامن في طريق التعليم لا في مناهجه.

ويقول مسيو ليمان وهو من أكبر مديري الجامعة أمام لجنة التحقيق البرلمانية «إن التعليم عندنا في جميع أنواعه قد هوى إلى قرار سحيق ليس بعده قرار ولا أدل على ذلك من الخدمات الجليلة التي قام بها خريجو جامعات ألمانيا للصناعة وعجز خريجي جامعاتنا عن

مجاراتهم فيها. فألمانيا تخرج كل عام عدداً عظيماً من العمال المتنورين الماهرين الذين تحتاج إليهم أوربا وأمريكا في مصانعهما ومعاملهما.

وبينما العلوم والصناعات تنمو على اطراد في ألمانيا إذا بها عندنا في تدهور يزداد يوماً بعد يوم ومرجع هذا التقهقر في اعتقادي هو أن طرق التربية والتعليم في فرنسا نقلها اليسوعيون عن بلاد الصين ونبتت في مدرسة «لويز لوجران» القديمة التي أسسها هؤلاء القساوسة العائدون إلى فرنسا من بلاد الشرق الأقصى ومنها انتشرت في البلاد كلها ولا تزال هذه الطرق متأصلة إلى اليوم في نفوس المعلمين مالكة عليهم مشاعرهم جميعاً».

فالعلة إذن إنما هي في وسائل التربية وطرق التعليم لا في المناهج نفسها بدليل أن المناهج واحدة أو تكاد تكون واحدة في ألمانيا وفرنسا ولكن شتان ما بين النتيجتين فالعبرة بالمدرس الكفء لا بالمنهاج الجذاب الخلاب.

وعادةُ السيف أن يُزهَى بجوهره   وليس يعمل إلا في يدي بطل

إن الألمان أمة فطنت من زمن بعيد إلى فكرة هي العقدة الحيوية في التربية والتعليم ألا وهي حمل مدرسي الكليات على أن يهتموا كل الاهتمام بالطلاب وعلى أن يبذلوا ما في وسعهم لتشويقهم إلى العلم. والسبب في ذلك أن الطلبة هم الذين يقومون بدفع رواتب الأساتذة ولما كان لكل علم من العلوم عدد كبير من المدرسين الأحرار فإن

الطالب يتجه طبعاً نحو الأستاذ الذي يجيد التدريس ويتقن طرقه لذلك نرى المدرسين يتنافسون في العناية بتثقيف الطلبة وفي اجتذاب أكبر عدد ممكن منهم إلى دروسهم ليتسع لهم سبيل الرزق فتراهم يعمدون تارة إلى الابتكار في طرق التدريس وتارة في نشر أبحاثهم العلمية القيمة علماً منهم بأن هذه هي الطريقة الفذة التي توصلهم إلى نيل المناصب العالية والوظائف الدارَّة أنا مدرس الملية في فرنسا فموظف حكومي يتقاضى راتباً ثابتاً وليس له أقل مصلحة في أن يستهوى عقول طلبته وأن يشوقهم إلى العلم ويحببه إليهم ولو أنه كان يتقاضى راتبه منهم لاضطر إلى تغيير طرقه في التعليم وإلا سقط في ميدان المسابقة وحلّ محلَّه من هو أصلح منه وبفضل هذه المنافسة الحرة في التدريس أصبحت الجامعات في ألمانيا وقد توافر لديها هيئة محترمة من كبار العلماء والمدرسين لا نظير لها في العالم المتمدين.

لذلك يقول جوستاف لوبون

«إننا إذا أردنا أن ننهض من الهوة التي وقعنا فيها فعلينا أن نقلد الألمان وعلينا أن نبدأ بالسير في الطريق الذي سلكوه ووصلوا فيه إلى النهاية».

ولقد فكر الألمان طويلا في الكلمة الحكيمة التي فاه بها (ليبنز)

Donnez-moi l'Education et je changerai la face de l'Europe avant un siècle.

ومعناها «سلمني قيادة التربية وأنا كفيل بتغيير وجه أوربا قبل قرن واحد من الزمان».

ننتقل بعد هذا التمهيد إلى الموضوع الأصلي وهو التربية في أمريكا.

التربية والتعليم في أمريكا

يقول جوستاف لوبون أن للمقارنة دخلاً كبيراً في تكوين عقولنا وتحصيل معارفنا ويجدر بنا لكي ندرك كنه أسباب انحطاط التعليم في الجامعات عندنا أن نقرنه بالتربية في أرقى بلاد العالم تربية وأشدهم عناية بأمرها ألا وهي أمريكا.

وأن المجلات التي تتصدى لشئون التربية في الممالك المتحدة كثيرة ولكنها لا تجدينا نفعاً كبيراً لأنها مدبجة بيراع رجال الجامعات أنفسهم ولهم فيها اعتباراتهم الخاصة ووجهة نظرهم الخاص لذلك كان لنشر السفر البديع الذي وضعه حديثاً «مسيو بويز» ناظر مدرسة شارل روا في طرق التربية الأمريكية رنة وضجة بلغت عنان السماء في فرنسا وعجبوا أيما إعجاب بما علموه من نظريات الأمريكيين في التربية وقالوا أن مثل تلك التربية خليقة أن تخلق إنساناً أرقى من إنساننا.

وهاك ما خطته يراعة عالم من أكبر علماء فرنسا «مسيو لو

شاتلييه» قرأ هذا الكتاب فعرف للأمريكان في تربيتهم المزايا الآتية:

قال: إن أول عاطفة تملك على الإنسان نفسه عند قراءة كتاب مسيو بويز عاطفة اغتباط بحضارةٍ أرقى حقاً من حضارتنا: اعتقاد شامل وإيمان ثابت بحسنات التربية وفضلها، حرية تامة تتمتع بها المدارس على اختلاف أنواعها وتبيح لها أن ترقي رقياً متناسباً وأن تُجرى من التجارب العلمية ما تشاء- بالغة النفقات ما بلغت- إجلال المدرسة إجلالاً يقصيها عن السياسة ويحصنها من المعارك السياسية على شدتها وحدتها عند الأمريكيين، فلسفة عميقة في التربية تملأ الفرد حياة ونشاطاً- في كل ذلك دلالى على رقي عقل وتهذيب فكر قلَّ أن يكونا لغير تلك البلاد.

وها كم صحيفةً بديعة من ذلك الكتاب النفيس جمعت أمهات مسائل التربية والتعليم:

يَنشر المدرس بدقة ومهارة الصعابَ أمام التلاميذ مرتبةً مدرجة ليواجهوها فينظروا فيحكموا فيظفروا ويفوزوا، العمل الجسماني يسبق العمل الفكري دائماً أو يقارنه حتى إن أبعد العلوم عن الحس عندنا وأكثرها جرياً وراء التصور والخيال تقدم إليهم في أشكال محسة تقع عليها أنظارهم وتلمسها أيديهم فيتعاونون على سرعة إدخالها في أذهانهم مهارة اليد ودقة الفكر.

فعلم الجغرافيا أعمال يدوية محضة ودروس اللغة والإنشاء تعلم

في المعامل لشدة ارتباطها بالرسم والحفر والصب إذ من الرسوم والصور والمجسمات تنتزع الأفكار وأساليب التعبير.

والحركة في أرقى صورها والاشغال اليدوية التي تحترف بها جميع المدارس على السواء وتدين بقيمتها التهذيبية هما أحسن درس وخير تمرين للنفس على الصبر والثبات والإرادة.

التعليم كله في كلمة: يعمل الجسم مع العقل جنباً لجنب دائماً:

والتعليم الثانوي الذي هو حلقة الاتصال بين طور الطفولة وطور الشباب يسير إلى هذا النمط بعينه– قرن العلم بالعمل– Instruction par L'action مع التوسع في ذلك كلما ارتقت مدارك التلاميذ فتزداد المسائل المطلوب منهم حلها صعوبة كما يزداد الغرض المطلوب الوصول إليه بعداً والعقبات عراقة وكآدةً.

تحرير العقل والعاطفة من كل وصية ورقابة. انتقاص سيطرة الأساتذة تدريجاً مقابل نصيب من التبعة والمسئولية تلقي على عاتق الشبان والشابات تدريجاً كذلك. ذلك هو الغرض الأسنى الذي ترمى إليه التربية.

يحمل التلاميذ على العمل بحرية تامة كأنهم وحدهم في الدنيا بلا رقيب ويحبب إليهم السرور يأتي من طريق الجهد والمعاناة والفرح ينشأ من عراك الصعوبات ومكابدة العقبات. ويدربون على ضبط النفس والاقتدار على زجرها وقمعها كل أولئك هو المدرسة العظمى

ووظيفتها الكبرى فلا الحقائق ولا النظريات تلقي شفهياً على التلاميذ لأن الأمريكيين ينفرون النفور كله من النظريات المهيأة المجهزة ومن التعريفات والتصورات إلا إذا خلقها العمل وانتجتها التجارب.

لم يبق في المدارس كلها من أثر لتلك الطرق التي ترى الفائدة كلها في تلقين العلوم عن طريق الشرِح والكلام دون أن يترجمها التلاميذ بالأفعال والأعمال ويرى المدرسون أن التعليم على العموم والعلمي منه على الخصوص لا يمكن أن يكون تعليما منتجاً مفيداً إذا لم يمرن التلاميذ على كشف الحقائق وحل المسائل العلمية بأنفسهم وتلك طريقة الاستكشاف من جديد **Rediscovery** المتبعة في المعامل والمصانع دائماً ولم يبق للدروس النظرية التي تعطي في الفصول بطريقة الإلقاء قبل بدءِ الدروس العملية التطبيقية أو معها أو بعدها أهمية تذكر.

أما المذاكرات التي يكتبها التلاميذ بأنفسهم في أثناء الدراسة العملية بالمعامل والمصانع التي يصفون فيها مشاهداتهم وتجاربهم الخاصة فإنها قطب الرحى وأساس التعليم والمقياس الصحيح الذي يسبر به غور التدريس لأنها هي وحدها التي تدل دلالة صحيحة على كفاية التلاميذ ومبلغ استعدادهم واقتدارهم على تلمس أسرار النظريات واستنباط قوانينها من ملاحظة الأدوات والأجهزة.

ولا يعير الأساتذة أهمية ما لتلك المذكرات التي يلتقطها

التلاميذ من أقوالهم في أثناء الدراسة النظرية والتي لها الصيت الذائع والقدح المعلى في جميع المدارس الأوربية.

وفي مدارس التعليم العالي يستمر الفوز للجهد والغلبة للابتكار والاختراع، والدعامة الكبرى التي يشاد عليها التدريس فيها هي ترك الطلبة يجرون التجارب العلمية بأنفسهم دون أن يتجاوز تدخل الأساتذة في شؤونهم حد النصح والإرشاد وليس لهم في ذلك من غرض سوى استجلاء الاستعدادات الحقيقية لكل تلميذ وتبين ملكاته وقرائحه وقدرته على العمل والاستنباط.

غرس بذور الإرادة في أفئدة الأطفال والشبان وإنماء حب العمل والمثابرة عليه في قلوبهم من بدء حياتهم والإسراع في نقلهم من طور التبعية إلى طور الاستقلال وإعدادهم بالطرق العلمية المحكمة لأن يتولوا شئونهم بأنفسهم وإلا يعولوا في أمورهم إلا على جهودهم تلك على ما يظهر أعظم الأماني وارفع الغايات التي تطمح إليها أنظار القائمين بشئون التربية والتعليم في المدارس الابتدائية والثانوية والعالية.

تربية العمال

أما تربية العمال في المدارس الصناعية على اختلاف أنواعها فإنها ترتكز كذلك على طريقة التعليم بالمحسات والتجارب ولكن مع التوسع فيها إلى أقصى حد وأبعد مدى حتى أن العامل الأمريكي

الحالي ليعتبر في نظر الأوربيين القدوة المثلى والمثل الأعلى الذي يطمحون إليه في ترقية عمالهم على مدى الأيام لأنه في الغالب رجل مستنير العقل مدرب الفكر واسع الحيلة وبخاصة في الحرف والصناعات الراقية.

أما عهد العامل في الزمن السالف الذي كان لا يتجاوز علمه حد القوة العضلية والتقاليد القديمة وطرق الأسلاف المتوارثة فقد مضى وانقضى وأصبحت التربية في جميع المدارس الصناعية مبنية على طريقة الاقتصاد في الأيدي العاملة وأن يستبدل بها شغل الآلات الميكانيكية الحديثة الدقيقة التي لا تتطلب من قوى العامل الجسمانية قدر ما تتطلبه من قوة فكرة ودقة ملاحظته وحضور بديهته في اتخاذ القرارات السريعة لتلافي الطوارئ العارضة ولقد أحدثت سرعة التغيير والتحسين في الآلات الصناعية الحديثة وطرق إدارتها صفات جديدة في العامل الأمريكي عقلية أكثر منها جسمانية وتعمل جميع تلك المدارس على تنمية تلك الصفات في العمال وترسيخها في أذهانهم لتصبح على مدى الأيام سجية لهم وغريزة فيهم.

وفي تلك المدارس تبني الدراسة النظرية على المشاهدات والمحسات كما في مدارس التعليم العام وتستند الدروس الشفهية إلى التمرينات التجريبية والأعمال اليدوية التي من شأنها أن تضيف إلى

المعلومات الأساسية في مختلف الحرف والصناعات قوة المراقبة وتنبه الذهن ومهارة اليد وحذق الصنعة.

وليس للاخصاء أثر ماّ في تلك المدارس لأنها تحاول أن تربي العمال تربية صناعية عامة توسع بها مداركهم وتنمي فيهم حاسة التنفيذ من جهة ومن جهة أخرى تجنبهم خمود الذهن وضيق الصدر وملل النفس، تلك التي تستولى عليهم من جراء مزاولة حرفة واحدة وتكرار عمل واحد على وتيرة واحدة مزاولة حرفة واحدة وتكرار عمل واحد على وتيرة واحدة كما هي الحال في صناعة الوحدات المتماثلة كالسيارات المتنوعة التي أصبحت المعامل تخرج منها الملايين.

وإّذا قيست الأعمال بنتائجها كان لنا من عظيم مقدرة العمال في أمريكا على الإنشاء والاختراع والإنتاج بمعونة آلات بلغت من الدقة مبلغاً عظيماً أكبر دليل على أن تلك التربية الفنية الأمريكية عي أنجع أنواع التربية وأشدها فعلا في النفوس.

وليس فيما وراء المحيط الأطلنطي أثر ماّ لتلك الخرافة التي رسخت في نفوس أهل أوربا واستعصى استئصالها من عقولهم وهي احتقار الأعمال اليدوية وازدراؤها فليس هناك أمريكي واحد يعتبرها وصمة مخجلة أو عملا مخلا بالشرف فلا القضاة ولا الأساتذة يُعتبرون أسمى منزلة وأرقى عقلا من إخوانهم الأذكياء من عمال المطابع ورؤساء المعامل.

أما الموظفون الكتابيون في مصالح الحكومة فقد عرفوا من زمن بعيد مكانتهم من المجتمع ووطدوا أنفسهم على كسب لا يتجاوز ٥٠ أو ٧٥ فرنكا في الأسبوع في حين أن البناءَ أو النجار أو الحداد أو السباك يبلغ كسبه ١٢٠ فرنكا مع تساوي مدة العمل.

ولقد تأصل حب العمل في طباع أهل أمريكا وشغفوا بمزاولة الأعمال حتى أن كل أمريكي عامل في جوهره وهم يقدرون الرجال بأعمالهم وكفايتهم ويزنونهم بما يحدثون وما ينتجون ولا يؤمنون بتلك الفكرة التي يؤمن بها الأوربي ويدين بها من أن الألقاب والشهادات العلمية تنيل حاملها شيئاً من النبل العقلي والشرف الفكري.

ملحوظة

والسبب العلمي النفسي (البسيكولوجي) الذي يدعو المربيين الأمريكيين إلى التعلق بأهداب العمل ويحبب الأعمال اليدوية إلى تلاميذهم لهذا الحد هو أنهم يعتقدون أن هناك ارتباطاً وثيقاً بين حركة أجزاء الجسم بين الخليات المخية المحركة التي هي مراكز الإرادة العملية. فإذا اقتصر على فهم النظريات وإدراكها دون أن يعني بتنمية القوة العضلية لكل عضو من أعضاء الجسم قويت خليات المخ المدركة وخمدت الخليات المحركة ونشأ عن ذلك وهن العزيمة وضعف الإرادة وإن وجد الفكر والتصور والذكاء.

ولابد للتربية الصحيحة أن تصرف كل همتها إلى تنمية هذه

القوى على السواء حتى تخرج رجالاً يقرنون العلم بالعمل ويعقبون القول بالتنفيذ وذلك ما تصبوا إليه نفوس الأمريكيين وتطمح أنظارهم إليه في تربية أبنائهم.

تقسيم التعليم

ينقسم التعليم في أمريكا إلى أدوار أربعة يستغرق كل دور منها أربع سنوات فيكون مجموع ما يقضيه الولد في المدرسة ست عشرة سنة وهي:

١- التعليم الأولى من ٦ إلى ١٠ سنوات **primary**.

٢- التعليم الابتدائي من ١٠ إلى ١٤ سنة **Grammar Grades**.

٣- التعليم الثانوي من ١٤ إلى ١٨ سنة **High Schools**.

وإذا كان التعليم الثانوي فنياً من ١٤ إلى ١٨ سنة أيضاً يسمى **Technical Schools**.

٤- التعليم الفني العالي من ١٨ سنة إلى ٢٢ سنة ويسمى **Institute of Technology**.

جميع الأولاد الأمريكيين يمرون بلا استثناء بالدورين الأول والثاني ويزيد الأقبال على التعليم الثانوي يوماً فيوماً حتى بين طبقات العمال غير أن الكثيرين يغادرونه بعد مضي سنتين عندما يبلغون السادسة عشر من أعمارهم إما للبحث عن وظائف في المحال

التجارية والصناعية تقوم بحاجاتهم المعاشية وإما للدخول في المدارس الفنية التي تقوم بتأهيلهم لإدارة حركة المعامل.

أما التعليم الفني العالي فلا يغشاه إلا صفوة الشبان وخلاصتهم على أن الكثيرين يشكون من طول مدته لأنه يؤخر موعد دخولهم في معترك الحياة العملية.

ولقد عنى الأمريكيون عناية خاصة بثلاثة الأدوار الأولى من أدوار التعليم وقد كانت موضع درسهم وبحثهم مدة طويلة حتى أصبح التعليم يسير فيها على نمط واحد وطبق أساليب واحدة في جميع أرجاء الممالك المتحدة الأمريكية.

والدعامة الكبرى التي يشاد عليها صرح التعليم في أدواره الأولى هي تعليم الاشغال اليدوية وغاويتهم من تدريب التلاميذ عليها أن يبثوا فيهم روح الابتكار والتنفيذ، أما الابتكار فبواعثه دروس الرسم والهندسة والملاحظة وأما التنفيذ فيكون بإبرازهم ما ابتدعته أفكارهم إلى حيز الوجود بصنع أيديهم. وفي مدارس نيويورك يتعلم الأطفال صوغ الأشكال من عجينة مرنة لإِدراك الأبعاد الثلاثة وصنع الأشكال الورقية وهي ذات بعدين فقط، وصنع الأسلاك والخيوط في أشكال مختلفة ممثلة هندسة البعد الواحد.

وجل مدارس أمريكا تحذو حذو مدارس نيويورك في اختيار موضوعات الرسم والأشغال اليدوية في المدارس الابتدائية إذ يدور

حول فكرة أساسية هي لفت التلاميذ إلى ما يقع تحت أبصارهم وفي أفق ملاحظاتهم كالمنازل وأشغالها وواجباتها وبواعث السرور فيها ثم يلي ذلك حياة المجتمع وما يتبعها من وسائل النقل ومن مشاغل الناس وملاهيهم ثم تليها الحياة المدرسية فالإجازات السنوية فدراسة المناظر الطبيعية وتلك ما يسمونها بمراكز الرغبة أو الشوق **Interest Centars**.

ومن المحتم على المدارس قبل أن يخوض في موضوع من تلك الموضوعات أن يثير شوق التلاميذ إليه بمناقشة تجتذب أنظارهم وتدفعهم إلى الرغبة في البحث عنه فيندفعون إلى العمل فرحين مسرورين بما يوحيه الموضوع في نفوسهم من إحساسات قديمة وذكريات سابقة وبذلك يقبلون على تنفيذه إقبال الهائم به كمن يريد تحقيق فكرة شخصية قامت في نفسه ويبرز إلى عالم الملموسات فكراً جال في خاطره فاندفاعه يكون بباعث من إرادته وقوة صادقة من عزيمته ولا غرابة فحين يوجد الشوق تنشط الإرادة ويصدق العزم ويصح التنفيذ.

وعلم الرسم سرعان ما يتحول في المدارس الأولية إلى فن جميل فيخرج الأطفال إلى الحدائق والمنتزهات ليرسموا ما يقع تحت أبصارهم من المناظر الطبيعية المختلفة وهذا النوع من الرسم (الرسم من الطبيعة مباشرة) يحبه الأمريكيون ويحضوَن عليه لأنه يعلم الأطفال

من صغرهم كيف يترجمون ما يجول في أفكارهم بالأشكال الجميلة والرسوم الأنيقة. ويتعلم الطفل كذلك في المدارس الأولية الرسم بالألوان والفرجون (الفرشة) والماء والريشة وقلم الرصاص كما يتعلم رسم الوجوه البشرية ويحذقها بسرعة لأنهم يتخذون نم وجوههم أنفسهم نماذج ينقلون عنها.

أما الفكرة السائدة في المدارس الأوربية وهي تمرين اليد والعين فقط في رسم الأشكال الهندسية ونقل النماذج الصناعية فلا يقبلها الأمريكيون في مدارسهم.

فلاحة البساتين

في مدينة واشنطن خمسة وأربعون ألف طفل يشتغلون بفلاحة البساتين ويقام فيها كل سنة معرض عام تعرض فيه النباتات والخضروات والأزهار والثمار التي يعهد إلى التلاميذ في غرسها ونموها بأنفسهم وتعرض مع تلك الحاصلات أعمالهم المدرسية النظرية وكلها لا تخرج عن معلومات مستمدة من تلك الحدائق.

وفي هذه المدارس يحوم تعليم العلوم كلها من جغرافيا وحساب ودروس أشياء وأشغال يدوية حول تلك الحدائق الصغيرة ويتلقى التلاميذ فيها معلومات حية طريفة محسة عن طبيعة الأرض ورطوبتها وخصوبتها ونمو النبات فيها وظهور البراعم (الأكمام) والأوراق والأزهار والثمار وأثر الفصول فيها.

فلو قرأت مذكرة كل طفل لعرفت منها تاريخ البذر وخروج النبت ونمو الساق وملاحظاتهم على أدوار نمو النبات وظهور البراعم وانبثاق أزهارها وإيناع أثمارها وجنيها.

هذا مجمل مناهج التعليم الأولى في أمريكا فإذا انتقلوا منه إلى التعليم الابتدائي تدرجوا إلى ما هو أرقى وأوسع في تلك العلوم عينها وما يجد عليها ولا ينبو عنها وكذلك حالهم إذا ما انتقلوا إلى التعليم الثانوي فإنهم يزدادون نمواً وبسطة واتساعاً في المعارف مع حرصهم على ربط هذه الأدوار الثلاثة بعضها ببعض حتى كأنها هيكل جسم واحد يتم تكوينه في الدور الأول ولا يزيده ما يلي من الأدوار إلا عظما وقوة ونمواً.

المحاضرة الرابعة

لمحات من نظام التعليم في الأمم المتحضرة

حضرات أصحاب المعالي والسعادة: حضرات السيدات: حضرات السادة.

أبدأ محاضرتي بتقديم الشكر الجزيل لحضراتكم لتفضلكم بالحضور لسماعها وكل ما أرجو أن يكون لمحاضرات نقابة المعلمين النشيطة الغيورة صدى في نفوسكم ونصيبٌ صالح من اهتمامكم والتفاتكم فإن مسائل التربية والتعليم ليست وقفاً على فريق من الأمة دون فريق ولا طائفة، بل هي ملك للجميع ويجب أن يهتم لها الجميع.

ولم أر أمة أدركت هذه الحقيقة الناصعة وقدرتها قدرها إلا الأمة الأمريكية فترى أبواب المدارس على اختلاف أنواعها مفتحة لكل زائر صغيراً كان أو كبيراً غنياً أو فقيراً محامياً أو طبيباً مزارعاً أو تاجراً أو عاملاً الخ.

كل هؤلاء يرون واجباً عليهم أن يزوروا المدارس من حين لآخر

ليتفقدوا سير الدروس بها وليبدوا ما قد يعنّ لهم من الملاحظات. وإذا أراد ذوو اليسار منهم أن يظهروا سرورهم من تلك المدارس فعندهم ألف طريقة وطريقة لإظهارها والأمريكان في هذا أجود من الريح.

بمثل هذا التشجيع يشعر المدرسون والقائمون بأمر التربية والتعليم أو وراءهم أمة ترقب حركاتهم وتهتم لأمورهم وتفرح لرقيهم فيتضاعف اهتمامهم بأمر تلاميذهم ويزدادون همة ونشاطاً ولذلك ارتقت الأمة الامريكية رقياً يحسدها عليه أكبر الأمم الأوروبية حضارة ورقياً.

أن وزير المعارف وحده مهما أوتي من العلم والحكمة بل وعشرين معه من نوابع رجال التعليم لا يستطيعون أن يقوموا بأعباء هذه المهمة على وجهها الأتم إلا إذا شعروا بأن من ورائهم أمة يعتمدون عليها تزودهم بالنصح والإرشاد وتشجيعهم بالمال، بهذا وحده ارتقى التربية والتعليم وبالتالي ترتقي الأمم.

كثيراً ما نقرأ ونسمع أن وفود الأعيان تقصد إلى وزارة الداخلية لأمور ربما لا تكون من أهم شؤون الدولة ولم نسمع ولم نقرأ عرجوا مرة على وزارة المعارف أو المدارس لتفقد أحوال التعليم والسؤال عن المناهج الجديدة وما تنوى الوزارة إدخاله عليها من التحسين. ونحن لا نستطيع أن نجاري الأمم الراقية ولا أن نتبوأ مكاناً محترماً بينها إلا

إذا احتذينا مثالها ونسجنا على منوالها ولا بد للوصول إلى ما وصلوا إليه من أن نغير كثيراً من أخلاقنا وأطوارنا. وكل من سار على الدرب وصل.

التعليم الثانوي

يحسن بنا ونحن على أهبة إنشاء جامعة مصرية أن نخص التعليم الثانوي بشيء من الشرح والإيضاح لأنه الحد الوسط بين التعليم الابتدائي والعالي ويجب أن يكون من السعة والمتانة بحيث يُعد الطلاب أعداداً وافياً أما للدخول في الجامعات وإما لسد وظائف الحياة الحقيقية أي الحياة العملية كالصناعة والزراعة والتجارة.

وقد عرضت عقدة تلك الدراسة المتوسطة على بساط البحث في أمريكا كما كانت موضع الجدل والمناقشة في أوربا بل وفي جميع البلدان المتحضرة التي يهمها أن تحكم الرابطة بين الدراستين الابتدائية والعالية وقد حلتها كل أمة على الوجه الذي يلتئم مع أغراضها من التربية ومراميها من التعليم.

وقد ارتأى الأمريكيون في هذا الصدد كما رأى كثير من الأمم الأوربية أن يكون هذا التعليم المتوسط علماً وخاصاً في آن واحد، عامًّا بأن تفرض على التلاميذ كلهم دراسة عدد معلوم من الموضوعات الهامة كلغة البلاد لمدة ثلاث سنوات أو أربع والرياضيات لمدة سنتين وقد يضم إليهما في بعض الأحيان التاريخ

والجغرافيا والتاريخ الطبيعي، وخاصاً بأن يضاف إلى تلك الأصول المشتركة علوم أخرى يختار الطالب من بينها ما يتمشى مع الغرض الذي يريد الوصول إليه كالملغات القديمة (يونانية ولاتينية) أو اللغات الحديثة أو العلوم الطبيعية أو إمساك الدفاتر أو قياس المساحات وما إلى ذلك.

وقد تستغرق دراسة العلوم الخاصة ٧٠٪ من زمن الدراسة في بعض المدارس و ٤٠٪ في البعض الآخر.

هذا فيما يتعلق بنظام الدروس وتوزيعها أما ما يتعلق بالغاية التي يسعى إليها الأمريكيون من هذا التعليم المتوسط فهي التوصل إلى نظام يكفل تكوين رجال ذوي جد ونشاط أضف إلى ذلك عنايتهم الكبرى ببث روح الاستقلال في نفوس تلاميذهم من بدء حياتهم فهم يتخلون تدريجاً عن سلطتهم ليتسنى لهؤلاء التلاميذ أن يتدرجوا في مباشرة أعمالهم ومراقبتها بأنفسهم ويمرنوا على الابتكار والاختراع وألا يعتمدوا في شيء إلا على إرشاد عقولهم وهداية أفكارهم.

والمثل الأعلى الذي يتطلع إليه كل أمريكي في ذلك هو قول صباه ذلك أنه قال لأبيه مرة إنه في حاجة إلى مِزلق (قبقاب للسير على الجليد) فقال له يا بني أمامك الغاب فخذ لك فأسا واحتطب لك حملا وبعه في المدينة واشتر بثمنه إن شئت مزلقا.

وقول رئيس جمهوريتهم (روزفلت) في أحد مؤلفاته: لا يتسنى لمجتمع من المجتمعات أن يرقى رقياً صحيحاً إلا إذا عاش أفراده من رجال ونساء عيشة نقية صحية وربَّوا أبناءهم على اقتحام العقبات وتذليل الصعاب لا على تجنبها والفرار منها وعودوهم أن ينتزعوا الفوز والنصر في الحياة من طريق الجهد والمعاناة وأن الرجل الجدير بهذا النعت لهو الجلْد الصبور النشيط الذي يكد ويكدح ليل نهار لحفظ كيانه واسعاف كل من يعيش تحت كنفه.

لذلك ولأسباب نفسية «سيكولوجية» ذكرناها قبلا عُنِي الأمريكيون عناية خاصة بتدريس مادة الاشغال اليدوية التي أصبحت ولها المنزلة الأولى بين فروع التعليم في تحريك الجسم وإنماء القوة العضلية وتقوية الإرادة العملية وهذا الموضوع الذي بلغ عندهم مبلغاً عظيماً من الأهمية إجباري في مقرر الدراسة الثانوية الفنية واختياري في المدارس الثانوية العادية إلا أن التلاميذ مع ذلك يقبلون على مزاولته إقبالاً عظيماً لما انطبعت عليه نفوسهم من حبه في المدارس الأولية الابتدائية.

ولا يختلف التعليم في هذين النوعين من المدارس الثانوية إلا في هذه النقطة أما باقي العلوم من تاريخ وجغرافيا وطبيعة وكيمياء فمفروضة فيها على السواء كما أنه لا فرق بين تعليم البنين والبنات في تلك المدارس إلا في نوع تلك الأشغال اليدوية فبينما الذكور

يشتغلون في الخشب والحديد وصهر المعادن يشتغل الإناث بالعلوم والفنون المنزلية كالطهي والغسل أو التفصيل والتطريز وفيما عدا ذلك يدرس الجنسان جنباً لجنب التاريخ والجغرافيا والرياضة على السواء وطبقاً لبرنامج واحد.

ترون من هذا:

أولا: إن التفريغ في العلوم يبدأ في المدارس الثانوية الأمريكية من السنة الأولى أما في مدارسنا بمصر فمن السنة الثالثة وسيكون من السنة الرابعة من المنهاج الجديد وفي اعتقادي أن الأمريكان مصيبون في رأيهم لأن التفكير في التخصص مع المحافظة على الثقافة العامة يترك الذهن مجالاً أوسع للتفكير في الغاية المطلوب الوصول إليها ولا شك أن فعل الزمن المديد أغرس للرغبة في العلم وثبات العزم على بلوغ القصد.

علل المربون متانة الحب الذي يشعر به الإنسان نحو رفيقه في المدرسة بأنه لم يكن ابن حاثة بل فعل الزمان المديد فنبت في النفس في رفق وهوادة رويداً رويداً حتى تغلغل في طياتها واستوى كما تستوي الأزهار على سوقها أما حب المفاجأة والمباغتة فلا يقيم في القلب إلا ريثما يخرج منه، على أن التفريغ في العلوم للأخصاء يبدأ في كثير من المدارس الحرة الأوربية منذ التعليم الابتدائي وما ذلك إلا إيماناً بأن الشغف الحقيقي بالعلوم لا يكون إلا من فعل الزمن

المتطاول فإذا نوى الطفل وهو في طفولته أنه سيصير طبيباً مثلاً ثم دأب على أن يرى من وقت لآخر ما يذكّره بهذا المصير غرس حبه في قلبه تدريجياً وصبغ له الأمل والخيال ذلك المصير بالصبغ الجميل فيزداد بهِ شغفاً وحباً.

سمعت سنة ١٩٢٢ في مؤتمر التربية الخلقي الدولي مربية سويسرية تخطب أمام هيئة المؤتمر في كيفية تربية الحب البنوي عند النساء قالت: يجب أن نُشعر البنتَ بحياة الزوجية المستقبلة من يوم أن تشعر بوجودها فتكون لعبتها تمثال عروس تداعبه ونلهو به ثم تتدرج إلى أدوات الشراب والطعام التي تناسب لعبها ثم إِلى متاع شبيه بمتاع المنازل ثم إذا شدت وعقلت وشبت وترعرعت وكل إليها الإشراف على تربية طفل من أطفال الملاجئ تقوم بنشأته ورعايته مدة سنتين كأنها أمه تحنو عليه ويسعدها أن يكون صحيحاً معافى فلا ينتهي بها ذلك الدور ألا وهي ربة منزل ماهرة، قد شغفت بحياتها الجديدة حباً وتأصل في روعها إن سعادتها لا تكون إلا في منزلها وأنه على تعلقها بأبنائها وغيرتها على تقويمهم وتهذيبهم تتوقف حياة الوطن وسعادة الأمة.

لذلك يقول المربي العربي: «اطبع الطين ما كان رطباً وأغمز العود ما كان لدناً وهل اللدونة والطراوة إلا في غض الشباب وريعان الصبا».

وثانياً: أن التعليم الثانوي عندهم ليس علمياً خالصاً كما عندنا بل أنهم أنشأوا مدارس خاصة بالتعليم العلمي وإعداد الطلاب للتعليم العالي من غير أن يضحوا بالتربية العملية الفنية كما أنشأوا مدارس ثانوية أخرى لها حظها من العلم أيضاً ولكن عنايتها بالحياة العملية أشد، والذين يخرجون منها يستطيعون أن ينصرفوا إلى فروع الحياة العملية الحقة.

ثالثاً: أن نصيب البنت من التعليم لا يكاد يختلف عن نصيب الولد في شيء إلا في نوع الأشغال اليدوية أما الثقافة العامة فواحدة فيهما والسبب في عناية الأمريكان بتربية البنت تربية علمية كاملة هو اعتقادهم أن المرأة تجود بكل ما منحت وتعطي كل ما وهبت فإذا ما هذبت وتثقفت دفعها كرم طبعها وصفاء جوهرها إلى التفاني في إيصال جميع معلوماتها إلى أبنائها وتلاميذها في غير شح ولا بخل فهم يؤمنون بأن مستقبل بلادهم بين يدى المرأة وأن عليها وحدها تتوقف سعادة الأجيال المقبلة المتعاقبة لذلك هم لا يدخرون وسعاً في تهذيبها وترقيتها إلى أبعد حد مستطاع وأن الذي يرى المطابخ ومصانع تفصيل الملابس الملحقة بكل مدرسة ثانوية تهوله ضخامة بنائها واتساع رجائها وفيها تتعلم الزوجة المستقبلة بالطرق العملية التدريجية كل ما من شأنه أن يضمن لها استقلالا حقيقياً داخل حدود بيتها.

ولا يرى الأمريكان رأي الأوربيين في فصل البنت عن الولد في المدارس لأنهم يعتقدون أن تعليم البنات في مدارس خاصة بهن كما هو الحال في مدارس أوربا تعليم سطحي صناعي لا خير فيه.

ولكي تقفوا على تدريس مادة الأعمال اليدوية في تلك المدارس أذكر لكم نماذج من تعليم الطبيعة والكيمياء والهندسة لأن طريقة تدريسها واحدة ولا يفوتني قبل عرض تلك النماذج أن أذكّر حضراتكم بأن الأمريكيين هم المخترعون لمعامل الكيمياء والطبيعة التي نراها اليوم منتشرة في جميع البلدان. ولا يعُلم أن مدرسة ثانوية أوربية وصلت في التعليم من طريق العمل **learning by doing** إلى ما وصلت إليه المدارس الثانوية الامريكية.

يقول مسيو بويز: إنه زار ما يقرب من عشرين معملا من تلك المعامل ورأى الطلبة وهم يعملون بها بكل ما أوتوا من جد ونشاط وقدر ما لها من الأثر النافع والفعل الصحيح في خفة حركاتهم وإيقاظ عقولهم وقد كان موضوع التجربة التي أجراها التلاميذ أمامه في مدرسة "**Crane Manual Training School**" تحقيق قوانين البندول ورأى أن الشبان والشابات عندما فرغوا من العمل وانتهت التجارب أقبلوا على مذكراتهم ودونوا فيها بكل بساطة وبكل اختصار ما يأتي: قوانين البندول– ذبذبات البندول الصغيرة متساوية في الزمن– لا علاقة لمدة الذبذبات بالكتلة– المدة تناسب الجزر

التربيعي لطول البندول فليس بين الظاهرة الناتجة وعقل التلميذ وعينه محل لذلك الحشو الممل من الجمل والاصطلاحات والتعريفات التي يجب استظهارها بل إن الحقيقة المجردة العارية هي التي تتجلى أمام أعينهم ثم تدخل في ذاكرتهم كأنها ملكهم الخاص.

وتسير التجارب طبقاً لرؤوس مسائل مختصرة من متون الكتب **Text books** تبين الغاية من كل تجربة والاحتياطات التي يجب اتخاذها تحاشياً للوقوع في الخطأ.

وإلى حضراتكم نموذجاً من نماذج التجارب الكيمائية التي كان يجريها طلبة مدرسة **Mac Kinley Training High School of Chicago** أثناء زيارة مسيو بويز لها (التغيرات الكيميائية للنحاس).

(١) خذ قطعة نحاس وتأملها. هل يشاهد عليها تغيرات ظاهرة إذا سخنتها في أنبوبة اختبار وهل تذوب في الماء؟ ما صفات النحاس الأخرى؟

(٢) ضع قطعة صغيرة من النحاس في أنبوبة اختبار بها حامض أزوتيك مركز. دوِّن بدقة وعناية ما يطرأ من الظواهر ومتى انتهى تأثير حامض الأزوتيك، صب السائل في حفنة من الصيني وضع الجفنة على شبكة معدنية فوق مصباح بنزين. سخن بهدوء واحذر أن تسخن بشدة إذا ابتدأ التجفيف.

(٣) بعد التبريد أجر على الجسم الحادث نفس التجارب التي اجريتها على النحاس على حسب ما هو مبين رقم ١.

(٤) هل إذا بخرت ثلاث أو أربع نقط من حامض الأزوتيك تحصل على ما حصلت عليه عند ما بخرت النحاس وحامض الأزوتيك؟

وازن بين رقم ٣ ورقم ١ ثم استنبط مع ملاحظة ما جاء برقم ٤ نتائجك ودافع عنها بالحجج القاطعة استناداً إلى ما اكتسبته من التثبت والخبرة في العمل.

يقول مسيو بويز: إن من يعلم مدى كراهية تلاميذنا لدراسة علم الكيمياء من الكتب والمختصرات والمذكرات يأخذه الدهش حينما يرى السرور بادياً على وجوه التلاميذ الأمريكيين وهم يتعلمون بالأدوات والأجهزة ذلك العلم النفيس الذي لم تعد تخفي أهميته العظمى على أحد سواء في قيمته التهذيبية أو في تطبيقاته الصناعية.

إن الأثر الذي يبقى في أذهاننا بعد مغادرة المدرسة من دراسة علم الكيمياء التي نسميها تجاوزاً بالكيمياء العملية لا لسبب سوى أن المدرس يُجري من حين لآخر بعض التجارب بمرأى من التلاميذ، ذلك الأثر هو أن النظريات والقوانين هي أصل العلم والأساس الذي يشاد عليه أما الحقائق والتجارب ففي المنزلة الثانية ولا تأتي بعدُ إلا لتحاول– ولو بالإكراه– تأييد تلك النظريات وإثباتها وأن علم

الكيمياء بحذافيره معلق على النظرية الذرية التي أغلقت لأوصد باب الاجتهاد ولاستحال التحليل واستعصى الاختراع وإن المبتدئ من الطلاب ليخيل إليه أنه بلغ ذروة الرقي إذا عرف أن الماء هو ايد ٢ وإن لم يكن يدرك لذلك الرمز أصلاً ولا معنى.

أما في أمريكا فإن النظريات والقوانين تستكشف بالعمل والتجربة كما قدمنا ولا شك في أن هذه هي الطريقة المثلى للتدرج في الابتكار والاختراع.

فبينما ترزح مدراسنا تحت عبء تلك الطرق العتيقة التي تقف بالتلميذ موقف المستمع المتقبل لا الممثل الفاعل إذ بمدارس الأمريكان تجاوبها بكل افتخار بما تنعم به من الطرق الحديثة التي ترمي دائماً وبكل الوسائل الممكنة إلى استخراج ما كمن في التلميذ من جهود وملكات وارادة ومنطق ومهارة وتوجهها جميعا للعمل جنباً لجنب متخذة لها في ذلك كله شعارهم المشهور " push- Help Yourself" ومعناه:

ما حك جلدك مثل ظفرك فتول أنت جميع أمرك

ليأخذوا الأطفال من حداثة أسنانهم. بالاعتماد على النفس والجراءة على الخوض في غمار الحياة وتجربة أمورها واقتحام عقباتها مهما كلفهم ذلك فهم يعلّمون الطالب كيف يكون وصولياً ولكن على أرقى وأشرف أساليب الوصولية.

تأثير هذه التربية الاستقلالية في نفوس الأمريكان

كان طبيعياً بعد ذلك أن نفهم من تربيةٍ تطرق ذلك الطريق وترمي دائما إلى إعداد كل فرد لأن يقوم بنفسه ويستقل بأموره في هذه المعترك أن الأمريكان قوم بلغوا من جمود العواطف وقساوة القلب مبلغاً عظيماً فلا يعنيهم أمر الجائع ولا يشغلهم شأن البائس وهذا نتيجة ما يسميه الأفرنج الفردية المتطرفة «L'individualisme à outrance» غير أن من ينعم النظر في أخلاقهم الاجتماعية يرى أنهم يفهمون من الصدفة والإحسان معنى غير المعنى الذي تفهمه الحضارة القديمة ذلك أنهم بحثوا عن علة الشقاء فاجتهدوا في ملافاتها وعرفوا مكمن الداء فعمدوا إلى استئصاله. عرفوا أن علة الفقر الجهل فأقاموا دور الكتب بكل سبيل وفتحوا مدارس لكل طالب وأوجدوا عملا لكل عامل ووسيلة لكل مستطيع فليسوا مثل الأمم القديمة تداوي ظاهر العلة وتبريء اليوم ما ينتقض غداً فتطعم الجائع وتسد حاجة المحتاج وهي بذلك إنما تعطل جمهوراً كبيراً تحتاج البلاد إلى جهوده وتعوده الرحمة الضارة وتحرم الوطن الانتفاع بوجوده فلا هي أحسنت إلى هؤلاء ولا إلى الوطن بهذا الأسلوب من الشفقة والرأفة.

والآن أعرج بحضراتكم على فرنسا التي ترسف في قيود طرق التربية العتيقة العقيمة كما يعترف به كبار علمائها وكتابها والتي لا

تزال إلى اليوم تئن أنيناً مراً من ذلك المرض الاجتماعيّ الخطير الذي نجحت أمريكا نجاحاً باهراً في استئصال شأفته من بلادها بفضل تربيتها الحقة وتعليمها الصحيح ذلك المرض هو وجود جيش عرمرم من ابنائها العاطلين وجلهم من الذين قضوا شبابهم بالمدارس والجامعات وحصلوا منها على الشهادات والدرجات والألقاب العلمية العالية.

يقول جوستاف لوبون إن الدعامة الكبرى التي يشاد عليها صرح التعليم في مدارسنا الثانوية والعالية هي حفظ الكتب الضخمة واستظهار الشروح المطولة وشحن الأدمغة بنظريات لا تستقر فيها إلا ريثما تنقضي أيام الامتحان شأن كل علم يصل إلى العقل من طريق السماع وليس للنظر فيه مجال وإذا كان الشاعر العربي يقول في مجال السياسة: السيف أصدق أنباء من الكتب فأنا أقول في مجال التربية والتعليم العين أصدق أنباء من الأذن.

والروح السارية في الجامعات بل وفي المعاهد العلمية كلها هو الاعتقاد بأن قيمة الرجال تقاس بمقدار ما يطيقون إن يحفظوا وما يستطيعون أن يسمّعوا فلا فرق عندنا بين خريجي الجامعات وحاملي البكالوريا إلا أن الصنف الأول يخزن في ذاكرته من المعلومات أكثر من الصنف الثاني وليس إذن بغريب أن يضؤل الإنتاج العلمي الفرنسي وتنحط مكانته العلمية بين الأمم.

نحن نعترف بأن عندنا مهندسين وأطباء وأساتذة يفوقون مناظريهم من الأمم الأخرى علماً ولكنهم للأسف إذا وضعوا قدمهم في ميدان الحياة العملية الحرة أظهروا من الخبل والعجز ما لا يشرف رجال الجامعة الذين خلقوهم خلقاً صناعياً والذين وصفهم الناس بحق أنهم علماء بلهاء **idiots savants** أما إذا منحتهم الحكومة وظائف فيها فإن ذلك النقص الفاحش والعجز الظاهر يظل مخبوءا مستوراً ولا يظهر جلياً إلا عند مزاولة الأعمال الحرة ولا سيما الصناعات والحرف التي تتطلب مهارة ودقة كحرفة المهندس مثلا. وإليكم أقوال أحد الأساتذة أمام لجنة التحقيق:

أن المهندس الألماني عند خروجه من مدرسة فريبرج (**Fribourg**) مثلاً يستطيع أن يباشر العمل من فوره وله قيمة فنية يعترف بها رؤساء المعامل والمصانع الكبيرة. أما المهندس الفرنسي الخارج من سنترال الذي يعلم من العلم النظري مالا يعلمه المهندس الألماني فإنه قل أن ينتفع به في هذا المضمار لأنه كما يقولون:

مستعد لكل شيء.**Apte à tout**

ولا ينفع بشيء.**Bon à rien**

ولذلك يختار رؤساء المعامل والمصانع في فرنسا عمالهم من خريجي مدارس الفنون والصنائع بها ويؤثرونهم على المتخرجين في مدرسة سنترال.

وما ينطبق على المهندس ينطبق على الجندي والطبيب والمعلم وغيرهم.

كتب مسيو (دوسو سير) أحد ضباط البحرية الفرنسية مقالا في كيفية تعليم تلاميذ المدرسة الحربية الرماية قال فيه: إن هؤلاء الشبان يقضون الأيام والشهور في حفظ نظرية الرماية من الكتب، والمدافع أمامهم، وليس لأحد أن يلمسها بيده ثم يمر الممتحنون فيمتحنون أعلى الدرجات لمن يحسنون الحفظ ويجيدون التسميع ولو أننا أردنا خيراً بأبنائنا وتوخينا معهم طرق التربية الحقة لتركناهم يضعون أيديهم في العجينة مباشرة ويفكون المدافع قطعة قطعة ثم يعيدون تركيبها المرة تلو المرة وإني لو أثق أن التلميذ الذي يطلق مدفعاً بعد حله وتركيبه بيده يعرف من نظرية الرماية والتصويب أضعاف ما يعرفه منها مَن حفظها من الكتب واستظهرها من الشرح.

لا نريد أن نسترسل في إيراد الأدلة والشواهد الصادرة عن أفاضل الكتاب والعلماء ولا سيما الذين ساحوا في الدنيا وجاسوا خلال الأمم وخبروا أحوال الشعوب ووقفوا على أسرار رقيها أو انحطاطها مثل «مسيو جوسوسير» المتقدم الذكر لأن الإنسان يكاد يخجل من تكرار أمور كهذه أضحت واضحة وضوح البديهيات غير أن من يراها بعينه يدرك مدى تأثير عقلية رجال الجامعة في جميع معاهد التعليم ومبلغ ما جروه علينا من الويلات بفضل طرقهم

العقيمة في التربية والتعليم فلقد صيرتنا أمة تتعلق بأهداب النظريات بعيدة عن الحقائق عاجزة عن تكييف الظروف والانثناء أمام الضرورات قصيرة النظر في الحكم على الأشياء والبصر بعواقب الأمور ولا بد من أن نعترف صراحة أن تعليمنا الحالي لا يتمشى مع التطور الحديث ولا يتفق مع احتياجات هذا العصر بل إنه من أهم عوامل الانحطاط الاقتصادي الذي تعانيه فرنسا اليوم وإِنه ليحزننا كل الحزن أن نُوازن بين رقينا البطيء في الشئون التجارية والصناعية وبين ذلك التفوق الظاهر والنجاح الباهر الذي أحرزته الأمم المجاورة لنا في هذا الميدان ولا سيما الألمان.

وكيف لا تكون الموازنة محزنة والنتيجة سيئة وقد جرينا في تقدير الرجال في سن العشرين على قاعدة ترتيب الشهادات التي أحرزوها من الحكومة ومن هؤلاء دون غيرهم تختار الحكومة من يتولى شؤونها ويقوم بخدمتها. أما الأفراد الذين قاموا بأنفسهم وعولوا على جهودهم ونبغوا نبوغاً عظيماً في المدارس الحرة فلا تنظر إليهم الحكومة ولا تستفيد من علمهم ونبوغهم لا لسبب سوى أنهم لم يطبعوا بطابعها ولم يحرزوا القابها.

وقد ترتب على ذلك اندفاع الشباب كلهم وراء الشهادات مضحين في سبيل الحصول عليها بقواهم الجسمانية والعقلية نابذين وراء ظهورهم وظائف الحياة الحقيقية النافعة التي لا يتسنى لأنه أن

تقزم بدونها وهي التجارة والصناعة والزراعة والاستعمار وهكذا. فكانت النتيجة المحتومة من تهافت الشباب على تلك الشهادات وزاد عددهم عن حاجة الحكومة وأصبحوا عيالا على المجتمع. وماذا تصنع الحكومة بذلك الجيش العرمرم من حاملي البكالوريا والليسانس وغيرهما. لا شك أن هؤلاء الشبان، وقد أعدتهم المدرسة للتوظيف ليس غير، ينزعون إلى العبث بالنظام ويجنحون إلى الثورة لأنهم يظنون أنهم ذهبوا ظلم الحكومة وجورها.

يقول الكاتب الفرنسوي «ليون سي» إن التعليم الثانوي جني على فرنسا جناية عظمى لأنه كان من أهم العوامل التي ساعدت على نمو الاشتراكية وانتشارها فيها من جراء تلك الزيادة المطردة في عدد حاملي الشهادات العليا الذين لم تستطع الحكومة أن تجد لهم عملا في مصالحها. وإِنّ أظهر الأدلة على ذلك وأوضحها لهو ذلك الطالب الفوضوي (إميل هنري) الذي بعد أن حصل على البكالوريا وأتم دراسته العالية في مدرسة الهندسة حكم عليه بالإعدام شنقاً.

إن العلم الناقص خطر لأنه يحمل الطلبة على احتقار الأعمال النافعة من جهة، ومن جهة أخرى يحرك أطماعهم ويفتح شهياتهم دون أن يمنحهم الوسائل لإرضاء تلك المطامع وإشباع تلك الشهوات.

إن هؤلاء البائسين من حاملي الشهادات العالية مرّ العلم على

أذهانهم في المدرسة مرور السحاب دون أن يفهموا له معنى أو يدركوا له غرضاً فأصبحوا لذلك عاجزين عن فهم الحياة الاجتماعية وإدراك نظرياتها المتشبعة المعقدة وأصبحوا لا يرون منها إلا ما يبدو لهم من مظالم موهومة وجور مزعوم.

يزداد عدد هذا الجيش الكبير كل يوم ولا بد أن يزداد كلما عظم نفور الناس من الأعمال اليدوية. وتدل الأرقام والإحصاءات على أنه في سنة ١٨٥٠ كان عدد الأسر التي قدمت أبناءها للتعليم الثانوي عشريين ألفاً، واليوم ارتفع ذلك العدد إلى عشرة أمثاله. وسينبئنا المستقبل القريب عن الأسباب التي دعت إلى انحطاط الأمم اللاتينية وانقراضها عن عالم الوجود. لا شك أن تعليم الجامعات يكون من أقوى معاول الهدم وأهم عوامل الفناء.

لقد بلغ من احتقار الفرنسيين للأعمال اليدوية أن كثيراً من العمال يكرهون أن يكون أبناؤهم مثلهم عمالاً يشتغلون بأيديهم، وأن كثيراً من المزارعين لا يروقهم أن يخلفهم أولادهم في حراثة الأرض، ذلك لأنه ولعوا بالتوظيف وآثروا فخره على الرخاء والغني اللذين تدرهما الأعمال الحرة.

ولقد كان من رواء ذلك أن صارت فرنسا تلجأ إلى الاستعانة بالطليان والبلجيكيين لفلاحة الأرض والقيام بكثير من الأعمال اليدوية التي هي في الواقع مصدر الثروة الحقيقية في البلاد.

لم يقف الأمر عند استخدام الأجانب في صميم البلاد بل تجاوزه إلى المستعمرات، فهذه البلاد الجزائر تموج بالسكان من أهل أسبانيا ومالطة على حين تفيض مدن فرنسا بالكتبة والمستخدمين الذين قنعوا بالمرتب الضئيل ورضوا بالعيش الضنك (لأن الوظائف أيضاً كالسلع في الأسواق خاضعة لناموس العرض والطلب) والسبب في ذلك راجع إلى أن التعليم الذي تلقوه بالمدارس لم يعدهم للمغامرة في الحياة العملية إن لم يكن قد أقصاهم عنها. ولقد شعر المصلحون من رجال فرنسا بوخامة العاقبة من دوام هذه الحال فهذا مسيو هانوتو أحد وزراء فرنسا السابقين يصرح أمام لجنة التحقيق بوجوب تحويل عدد كبير من المدارس الثانوية الحالية إلى مدارس فنية، ويقترح إدخال دروس الزراعة ضمن مقرراتها لأن فرنسا بلد زراعي، وقد نجحت التجربة نجاحاً عظيماً في عدد صغير من تلك المدارس ومنها مدرسة نيو بور المشيدة في الخلاء والتي كلفت الحكومة نفقات طائلة، والتي كادت تغلق أبوابها لقلة الطلاب فيها ولكنها ما لبثت أن عادت إليها الحياة وماجت بالطلاب لما أدخلوا فيها الدروس الزراعية النظرية والعملية، وفي هذا وحده دليل قاطع على وجوب أن تكون مناهج التعليم متغيرة طبقاً لطبيعة الإقليم وحاجة أهله، فتضاف الزراعة إلى العلوم إذا كان الإقليم زراعياً، ويحل محلها علم المحاسبة وإمساك الدفاتر إذا كان تجارياً وهكذا حت تجد كل مقاطعة من أبنائها من يتولى تسيير أمورها وينهض بأعمالها كما هو الحال في

المدارس الإنجليزية الثانوية.

ولقد قال «جول فري» لما كان وزيراً للمعارف قولا حكيماً بشأن الأعمال اليدوية وضرورة تعليمها في المدارس:

«إن اليوم الذي يتاح لنا فيه أن نضع المبرد والفارة بجانب فرجار الهندسة وكتاب التاريخ وننظر إلى جميع هذه المواد بعين واحدة ونعيرها اهتماماً واحداً لهو اليوم الذي يقضي فيه على كثير من الترهات والأباطيل من عاداتنا وتزول عوامل التفريق بين طبقات الأمة وينبعث نور السلام الاجتماعي من حُجر المدارس الابتدائية لينتشر في جميع أرجاء البلاد وما ذلك على فرنسا بعزيز ولا سيما بعد أن نجحت أمريكا في نشر تلك الطرق في بلادها».

نعم أننا نباين الأمريكيين في سرعة القبول للجديد لأن هذه الأمة حديثة لم تثقلها قيود الماضي من عادات وتقاليد، أما نحن الفرنسيين فقد يكون من الصعب علينا قبول الإصلاح لما لنا من سنن متبعة وعادات متأصلة، وصعب على الإنسان هجران ما تعود واطراح ما شب عليه، وتلك ميزة الأمريكيين علينا فهم ليس لديهم مثلنا جامعة تُصم آذانها عن الإصلاح وتحارب كل إنشاء وتجديد.

لعل من سوء الحظ للأمم اللاتينية أن كان لها تاريخ قديم تعتزم به ولا ترضى به بديلا فكلما دعا داع للإصلاح نكصوا على أعقابهم «وقالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وأنا على آثارهم مقتفون».

لذلك لم يتح لهذه الأمم ان تخطو تلك الخطوات الواسعة إلى الإصلاح لأنها تلتفت إلى الماضي فإذا هي خطت خطوة رجع بها الشوق إلى قديمها فتقهقرت خطوات، فنحن سنستمر في جهاد عنيف مع هؤلاء الأموات، ولعلنا غير مستطيعين في يوم من الأيام أن نُجلى من أمامنا جيش تلك الأشباح القديمة المروعة فقد مضى نحو قرن من الزمان دارت فيه الرحى وحمى الوطيس بين القديم والحديث ولم يظهر أن النصر بجانب الأحياء إلى الآن.

والخلاصة

نستخلص من كل ما تقدم أن التربية والتعليم على نوعين أحدهما عماده الحفظ والثاني عماده التجربة، أما النوع الأول فقليل الجدوى ضعيف الفائدة كما أشار إلى ذلك مونتين بقوله: **Savoir par cœur n'est pas savoir**.

ومعناه: ليس العلم بالاستظهار جديراً أن يسمى علماً. ويقول «كانْت» في هذا الصدد: إذا لم يستطع الكفل أن يطبق قاعدة نحوية تطبيقاً صحيحاً فلا فائدة من حفظه إياها لأنه يجهلها، وأن الفل الذي يعرف كيف يطبقها لهو الذي يعرفها حقاً وإن لم يحفظها.

وتسلك الأمم اللاتينية الطريقة الأولى أما الثانية فتسير عليها الأمم الانجلوسكسونية ولا سيما الأمريكان، فالشاب اللاتيني يتعلم اللغة من الأجرومية والمعاجم ولا يحرك بها لسانه، ويتعلم علم الطبيعة

من الكتب دون أن يلمس بيده جهازاً من أجهزتها، وإذا قدر له النجاح في الحياة العملية فيما بعد فلا يكون إلا بعد أن يتجرد من معلوماته القديمة ويبدأ بتربية نفسه بنفسه من جديد.

أما الشاب الأمريكي فقلَ أن يفتح كتاب الأجرومية أو اللغة لأنه يتعلم بقراءتها والتكلم بها، ويتعلم الطبيعة بالتمرن على ممارسة أدواتها وإدارة أجهزتها، ويتعلم الهندسة بأن يبدأ بالدخول كعامل في مصنع من المصانع حتى يمهر فيها بالعمل ثم يبدأ بعد ذلك بالنظريات، وبهذه الطرق البسيطة وصل الانجليز والأمريكان إلى خلق بيئة علمية من النابعين الذين يندر وجود أمثالهم في العالم.

وإنما آثرت الأمم الأنجلوسكسونية طريقة التعليم والتربية بالتجربة والعمل على طريقة الحفظ والاستظهار لا جرياً منها وراء المنفعة المباشرة التي تعود من ممارسة الأعمال ومزاولتها فحسب، بل سعياً وراء غاية أرفع وأسمى وهي تنمية روح المراقبة وقوة التفكير في النابتة، لأن إجراء التجارب يستدعي النظر الصحيح إلى الأشياء ويتطلب التأمل والتفكير، أما حفظ الدروس عن ظهر قلب فلا يتطلب ذرة من التعقل والتصور.

ولكي يقف حضراتكم على مبلغ تعلق الأمم الانجلو سكسونية بأهداب التعليم العملي تقتطف كلمة حكيمة وجهها المستر بلاكي الأستاذ بجامعة ادنبرج إلى الشبان قال:

«وصيتي للشبان أن يكون العمل ومراقبة الأشياء أول دراستهم، وأن يعلموا أن مناهل العلم العذبة وموارده الصافية لا توجد في الكتب بل في الحياة نفسها وفي التجربة والمزاولة والمحاولة، فإذا ما تقدم المرء إلى الحياة نشيطاً للعمل جزيئاً على التجريب صبوراً على المزاولة فذلك هو سر نجاحه، وليست الكتب بجانب تلك الصفات والمزايا إلا مرشداً عند الهفوة ومنبهاً عند الغفلة وساداً للكثير مما يعرض من خلل أو يطرأ من نقص، فالكتب إلى جانب التجربة مفيدة نافعة ولكنها وحدها لا طائل تحتها ولا خير فيها. وما مثلها إلا كمثل المطر يهطل على أرض لم تقبلها فأس ولم يشقها محراث.

ربما يتوهم أن الاعتماد على التجربة في جميع فروع التعليم ولا سيما الأدبيات منها كالجغرافية والتاريخية وعلم الأخلاق ليس بالأمر الهين المستطاع، والحقيقة أن تلك العلوم تلقن الآن للأطفال بالعمل والتجربة ليس إلا. ففي درس الجغرافيا يخرج المدرس بتلاميذه إلى الغيان والمتنزهات بعد أن يزود كلا منهم بالقلم الرصاص وبيت الإبرة (بوصلة الجيب) والورق المسيطر على شكل مربعات صغيرة ليعلمهم كيف يرسمون منظر الأرض التي يمرون بها ومرتفعاتها ومنخفضاتها على الورق في مستوى واحد بمقياس رسم معلوم مع المحافظة على الأبعاد والأوضاع. ولا يبدأ التلاميذ بالنظريات إلا بعد أن يحذقوا رسم الخرائط الجغرافية.

وفي درس التاريخ يعتمد على مشاهدة ما خلفته كل أمة وراءها من مدنية وحضارة كالمباني والنقوش والرسوم وما شاكلها، وهذه يمكن مشاهدتها بالتردد على دور الآثار أو استعراضها بالفانوس السحري أو السينماتوغراف. أن التاريخ إذا درس للأطفال على هذا النحو فإنه يترك في أذهانهم أثراً لن يمحي على مر الأيام والأعوام، أضف إلى ذلك أنه أنفع لهم من استظهار الوقائع الحربية وتواريخ الحوادث وسير الملوك من الكتب.

أما علم الأخلاق فيصح أن نقول إن أسلوباً غير أسلوب التجربة المباشرة في تلقينه للنشء لا يجدي نفعاً، وقد أشار إلى ذلك بسكال بقوله «إن الأخلاق الحقة تهزأ بعلم الأخلاق» يريد بذلك أن يقول أن من يظن أن الأخلاق تعلم بتلقين قواعدها من الكتب فقد جهل طبائع الأطفال جهلا عميقاً أن التجارب وحدها هي التي تعلم الرجال، وأنها وحدها هي التي تعلم الأطفال أيضاً، فلندع الأطفال يميزون الخير من الشر بأنفسهم، ولنعودهم من نعومة أظافرهم أن يتحملوا تبعة الشر كلما وقعوا فيه. قيل لعمر بن الخطاب ﷺ: فلان لا يعرف الشر قال هذا أحرى أن يقع فيه.

وهؤلاء سكان الجزر الفقيرة الذين اضطرتهم قساوة الطبيعة وضنك العيش إلى الارتزاق من طريق عراك الحوادث ومكابد الحيل (والحاجة تفتق الحيلة) إلى التخلق بأخلاق الرجولة الصحيحة كالصبر

والثبات والإرادة والدهاء والجرأة والإقدام، لأنهم تلقوها بالتجربة ودرسوها بالعمل فكان لها هذا التأصل في نفوسهم والرسوخ في طباعهم، ولا تكون أخلاق الأمم أخلاقاً صحيحة ثابتة إلا إذا غُرست في نفوس أبنائها بالتجارب والممارسة زمناً مديداً، وتلك هي الغاية التي تتجه إليها جهود المصلحين والغرض الأسمى الذي ترمي إليه التربية الحديثة التي وضع لها الدكتور جوستاف لبون تعريفاً جديداً مختصراً جامعاً اتفق كبار المربين في الأمم الراقية على اتخاذه أساساً تبنى عليه تربية النشء وهو **L'Education et l'art de faire passer le conscient dans inconscient l'** ومنعاه أن التربية فن يوصل إلى جعل النظريات التي تفتقر إلى أعمال الفكر والروية- عادات وغرائز في النفس تصدر عنها من غير تأمل ولا تفكر لطول المرانة والمراس. وقد فطن أركان حرب الانكليز والأمريكان إلى هذا التعريف وقدروا أهميته قدرها في التربية العسكرية على وجه الخصوص لأن الجندي في ميدان القتال مسوق إلى العمل بغرائزه وعاداته وهو يعتمد عليها أكثر من اعتماده على عقله وتصوره.

الخاتمة

أيها السادة..

إلى هنا فرغت من شرح أمهات مسائل التربية والتعليم في أمريكا مع مقارنتها، على قدر المستطاع، بمثلها في الأمم الأوربية الراقية، وليس لي من غرض إلا أن أعرض على مسامع حضرات المعلمين أو الغيورين على التعليم في مصر من أي طبقة كانوا أفكاراً سليمة جديدة في التربية والتعليم كانت هي السبب الوحيد في أن أصبحت الأمة الأمريكية متبوئة مكانة سامية غبطها عليها أعظم الأمم الأوربية حضارة ورقياً.

أعرض تلك الأفكار الصحيحة وأَنشرها بين الناس لاعتقادي أن الإنسان يجب ألا يتردد في نشر الأفكار الصائبة النافعة في البيئة التي يعيش فيها كالبذور الصالحة لابد أن تنبت يوماً ولو أصبت أرضاً يابسة جامدة أعرضها وأنشرها بين طبقات المعلمين خصوصاً لعلهم ينسجون على منوالها ويحتذون مثالها في مدارسنا أو يقتبسون منها على الأقل ما يناسب حالنا ويتفق مع ذوقنا.

قد يكون من الصعب أحياناً نقل طرق التربية والتعليم برمتها من أمة إلى أمة أخرى وربما لا يكون، فاليابان مثلا وهي أمة جديدة لم تثقل كاهلها العادات المتوارثة والتقاليد المتعاقبة استطاعت أن تنقل

نظام الجامعات في ألمانيا بحذافيره فاينع وأثمر وأصبح لدى اليابان بيئة علمية لا تضارعها في التثقيف وحب البحث والاختراع إلا البيئة الألمانية.

ومصرنا الجديدة الناهضة لا يضيرها أن تقتبس من النظم الحديثة ما تشاء فليست المدينة إلا تقليداً وانقياداً بعد تحكيم العمل والذوق في اختيار الأصلح والأنسب.

وأن قبول التبديل والتغيير وسرعة الإجابة لدعوة الإصلاح من أسرار نهوض الأمم ورقيها، فهذا مونتسكيو يعزو رقي الرومان وتفوقهم إلى تلك المرونة في طباعهم وسلامة أخذهم بالحسن متى ثبت لهم حسنه وقبولهم النافع والمفيد متى تحققوا نفعه ووثقوا من فائدته حيث يقول: «إن من أهم الأسباب التي جعلت الرومان سادة الدنيا وقادة العالم أنهم وهم يحاربون أمم الأرض جميعاً ويفوزون عليها الواحدة تلو الأخرى لم يحجموا أبداً عن التخلي عن عاداتهم والتحلي بما يجدونه أنسب منها وأصلح. ثم يقول بعد ذلك «ومن المدهش أن تلك الأمم التي نازلها الرومان في جميع الأمكنة والأزمنة استسلمت للفناء استسلاماً دون أن تفطن إلى سبب تدهورها. وتبحث عن علة شقائها».

وهل لشقاء الأمم المغلوبة على أمرها من سبب سوى الجهل المخيم على عقول ابنائها واستئثار كل فرد منهم بحب الفخار مفضلا

شهوته ومصلحته على مصلحة الوطن، فالأثرة والأنانية هي الداء الدوي الذي ينخر عظامنا اليوم.

لقد أغريتكم أيها السادة بسلوك طريق الرومان في سرعة قبول الجديد الموافق وليس ذلك طمعاً في أن نسود العالم مثلهم ولكن طمعاً في ألا يسودنا أحد وأن يكون بناؤها بأيدينا واعتمادنا على أنفسنا حتى نتبوأ بذلك مكاناً لائقاً بين الأمم.

وليس مرادي من التمدح بسرعة قبول الجديد والرضا بالتبديل والتغيير أن نقلب الأمور رأساً على عقب فإن ذلك لا ينبغي أن يكون سبيل أي مصلح فرب عجلة تهب ريثاً، ولو أن مصلحاً متعسفاً بدّل الأشياءَ جملة فإنها تواتيه حيناً ولكنها لا تلبث إذا زال عنها استبداده وارتفع سلطانه أن تعود إلى قديم شأنها وسابق عهدها.

إن الإصلاح الناجع ولا سيما في أساليب التربية والتعليم هو ذلك الاصلاح التدريجي المستمر الذي يحاكي الطبيعة في فعلها فهي التي كونت الجبال الرواسخ من ذرات الرمل الصغيرة بتراكم بعضها فوق بعض على مدى الأيام والأجيال.

فكرت وزارة معارفنا من عهد قريب في تغيير مناهج التعليم وتنقيحها ورأت أن تضيف إليها مواد جديدة كالمنطق والتربية الوطنية والتاريخ الطبيعي. وهذا حسن في ذاته ولكن نرجو أن تكون قد فكرت قبل أن تزيد تلك المواد الجديدة في نقص المواد القديمة حتى

لا ينوء التلاميذ بثقل الحمل والعبء الباهظ الذي يضطرهم إلى شحن أذهانهم بما لا يدوم فيما إلا ريثما ينقضي الامتحان، فقلد شاهدت بنفسي أثناء تفتيش المدارس الثانوية أن المدرسين يشكون من طول المناهج ولذلك رأيتهم يهتمون بإتمام المقرر أكثر من اهتمامهم بتثقيف اذهان التلاميذ وتربية ملكة التعقل والاستنباط فيهم حيث لا يدعون لهم من الوقت ما يمكنهم من التفكير والتروي بحجة أن المقرر أطول من أن يسمح لهم بالمناقشة والاستقصاء.

ليس من الضروري أن يكون تنقيح مناهج التعليم بالزيادة في المواد بل قد يكون بحذف بعضها واختزال البعض الآخر فسر التعليم هو في القليل الشائق المفهوم الذي يدعو إلى الاستنباط ويعوّد الحكم الصحيح على الأشياء والتبصر في عواقبها. التعليم الصحيح كما يقولون «كيفٌ لا كمٌ».

وتلك نقطة أساسية وفكرة جوهرية في موضوع التعليم نحب أن نوجه إليها الأنظار توجيهاً خاصاً وإن كنا نعتقد أنها لا تغيب عن فطنة وزير المعارف الذي لم يأل جهداً ولم يدخر وسعاً في سبيل الاصلاح والتجديد من يوم أن تسلم مقاليد التربية والتعليم.

على أننا نرحب بكل زيادة في مقرر الدراسة تنمي في النشء أخلاق الرجولة الصحيحة كالعمل اليدوي الذي يحبب إليهم الحركة ويعودهم الصبر والثبات والمقاومة في معالجة شئون الحياة.

سمعنا أن وزارة المعارف اعتزمت انشاء أقسام لفلاحة البساتين، وتلك فكرة جميلة تشكر عليها وأملنا أن تتوسع في هذا المنهاج من التعليم وتعممه في المدارس الأولية والابتدائية كما توسع فيه الأمريكان على نحو ما سمعتهم في المقال السابق أن تقتدي بها المدارس الأهلية الغنية كالجمعية الخيرية الإسلامية وجمعية المساعي المشكورة التي تملك نحو ألف وأربعمائة فدان- كان الواجب على تلك المدارس الحرة ألا تسير على منهاج التعليم النظري أسوة بالحكومة بل تقصر جهودها على تنمية هذا النوع من التعليم خدمة لأبناء اقليمها حتى يخرج منهم الصالحون للحياة العملية الزراعية ولا نرى منهم المتهافتين على الوظائف. وفي اعتقادي أنه لو استمرت الحال في مصر على ما نرى من العناية بالتعليم العلمي دون التعليم الفني لوقعنا بعد بضع سنوات في تلك المشكلة الاجتماعية الخطيرة الواقعة فيها أوربا اليوم وهي مشكلة العاطلين من حملة الشهادات على نحو ما ذكره جوستاف لبون عن فرنسا.

وقد سمعنا كذلك أن الوزارة اعتزمت تدريس التاريخ الطبيعي بفروعه من حيوان ونبات وجماد فسدت بذلك نقصاً كبيراً لازم التعليم في مصر مدة الثلاثين عاماً الأخيرة، وأكبر أملنا ألا تقتصر في تدريسه على النظريات وشرحها بين جدران المدارس، بل المأمول أن يخرج التلاميذ في فهم هذا العلم إلى العمل والمشاهدة بأنفسهم في الحقول والبساتين حتى تعشق أنفسهم تلك المعيشة وتستريح إليها

وتقع بها. وأرى أن يبدأ بدراسة هذا العلم الجليل الأثر في تنمية قوة الملاحظة من السنة الأولى.

جاء في تقرير اللجنة البرلمانية الفرنسية أن عدد التلاميذ الذين يعدون أنفسهم للعلوم النظرية في المدارس الثانوية ١٨٠٠٠٠ وإن عدد من يتخصص لفروع الحياة العملية من زراعة وتجارة وصناعة لا يتجاوز ٢٢٠٠٠ أعني بنسبة ٨ من النوع الأول إلى واحد من النوع الثاني، والأولى أن تعكس النسبة لأن الأمم لا تعيش بالمحامين والمهندسين فحسب بل رغد عيشها من كد المنتجين من الزراع والصناع والتجار، وهؤلاء هم نحو تسعة أعشار الأمة فلا بد أن يكون لهم من المدارس ما يناسب عددهم.

وها كم ما جاء في تقرير لجنة التجارة والصناعة المنشأة بقرار من مجلس الوزراء بتاريخ ٨ مارس سنة ١٩١٦ برياسة صاحب المعالي إسماعيل صدقي باشا «تقترح اللجنة إدخال التعليم التجاري الأولي في المدارس الأولية والتشجيع على توسيع دائرة الدروس التجارية الليلية في المدن العظيمة لأنه من اللازم أن يؤثر التعليم التجاري تأثيره المطلوب في الطبقات الوسطى والفقيرة من الأهالي على الأخص لأنها دون غيرها هي التي حافظت إلى الآن على الروح التجارية وتقاليدها خلافاً للطبقة العليا عندنا فقد بقيت ميالة إلى السيادة وإلى وظائف الحكومة. واقترحت إدخال المحاسبة وإمساك

الدفاتر في المدارس الثانوية إذا سنحت الفرصة لتعديل مناهج التعليم وتوسيعها في هذه المدارس».

وخيراً فعلت وزارة المعارف في إجابة هذه الأمنية بإدخالها علم أمساك الدفاتر ضمن مقرر الدراسة الثانوية، فإن دراسة هذا العلم وعلم التاريخ الطبيعي تفتح المجال أمام الراغبين في الالتحاق بمدارس التجارة أو الزراعة العليا، وبذلك يصبح التفريع شاملا لخمسة أقسام عظيمة.

ورجاؤها الأخير إلى وزارة المعارف، قبل أن تبت في تغيير المناهج وتنقيحها، أن تقتدي بالأمم الراقية فتعرض ما ارتآه رجالها على أهل الذكر في بلادها، ففي مصر وزراء سابقون للمعارف ومديرون أداروا المدارس ومعلمون تركوا التعليم–هؤلاء يحسن أن يشركوا في الأمر ليُبدوا آراءهم الصالحة. فهذه انكلترا استأنست برأي كل عالم حين شاءت تغيير المناهج فأخرجت لجنتها للناس تقريرها في واحد وعشرين مجلداً بعد سنتين كاملتين في البحث والتنقيب، وهذه اللجنة البرلمانية في فرنسا أخرجت تقريرها في ستة مجلدات ضخمة والتقريران يموجان بالآراء الصائبة والانتقادات الصحيحة لكل ذي رأي ولكل منتقد. ثم فيهما التاريخ الصادق لمساوئ التعليم وعيوبه مشفوعاً بالعلاج النافع والدواء الناجع.

وإني في الختام أرجو أن أكون قد أصبت المرمى في نقل هذه

الآراء السديدة الجديدة في التربية والتعليم من اللغات الأجنبية إلى لغتنا العربية السمحة، كما أرجو أن يكون لها من الأثر في نفوس المصريين ما كان لها في نفوس الأوربيين الذين اعترفوا بأنها كشفت لهم الغطاء عم حقائق وأسرار في شئون التربية والتعليم غابت عن أذهانهم واستعصت على أفهامهم وأنهم سيتخذونها مثالاً يحتذونه في تهذيب النابتة ونبراساً يستضيئون بنوره في إعداد الأجيال المقبلة للكفاح والنضال في ميدان الحياة العملية الحقة، فعسى أن نقتدي بهم ونجري على سننهم، والله ولي التوفيق،

الفهرس